

جدّ السيدة نفيسة زعيم أهل البيت

من مكة إلى المدينة :

ونشأت السيدة نفيسة رضى الله عنها نشأة نبوية، فإنها بعد أن درجت بمكة تحوطها العزة والكرامة، استصحبها أبوها وقد أوفت الخامسة من عمرها إلى المدينة المنورة وعاشت معه بداءة وأخذ يلقنها ما تحتاج إليه من أمور دينها ودنياها، وكانت تذهب إلى المسجد النبوي تسمع من شيوخه وتلقى الحديث والفقه من علمائه، وعاشت في مدرسة أبيها الحممدية تسمع منه تاريخ دينها وتاريخ أسرتها، ومن بين الذين التقت بهم السيدة نفيسة في المدينة الإمام مالك الذى كان حديث الفقهاء والمسلمين جميعا بكتابه الموطأ، وفقهه الذى انتشر في كل الأمصار، ووجدت السيدة كريمة الدارين في هذه الأجواء الرائعة مبتغاها وقرأت الموطأ وناقشت كل القضايا الدينية وبدأت تزداد معرفة كاملة والناس من حولها بما فيهم الإمام معجبون بهذه السيدة الطاهرة يسمعون آراءها في كل ما يتدارسون من فقه وسيرة وحديث.

إسحاق المؤتمن :

وبلغت كريمة الدارين سنّ الزواج فرغب فيها شباب آل بيت

رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى الحسن وبنى الحسين رضى الله عنهم، كما تهافت على خطبتها الكثير من شباب أشراف قريش، لما عرفوه من خيرها وبرّها ودينها وإيمانها وصلاحتها وتقواها وما نشأت عليه من عبادة ربها وإقبالها على طلب العلم حتى ضرت فيه بسهم وافر، إلى ما حباها به الله عز وجل من حسن بارع وجمال رائع، وما امتازت به من سرى الأخلاق وكريم المناقب وحميد الشائل، فقد برأها الله من معدن التقى ونبيل الشيم، فكان أبوها يأبى عليهم إجابة طلبهم ويردّهم ردًّا جميلاً، إلى أن أتاه إسحاق المؤمن بن جعفر الصادق رضى الله عنها، وكانت دار الحسن قبالة دار جعفر الصادق، فخطبها من أبيها فلم يرد عليه جواباً، فقام إسحاق من عند الحسن، وفي نفسه ما فيها، وذهب توا إلى المسجد النبوى ودخل الحجرة الشريفة، ووقف تجاه القبر في خشوع وإجلال.

فقال: يا رسول الله، إني خطبت نفيسة بنت الحسن من أبيها فلم يرد عليّ جواباً، وإن لم أخطبها إلّا لخيرها ودينها وعبادتها.

ثم انصرف، وقد انشرح صدره واطمأنت نفسه: ففى تلك الليلة رأى أبوها الحسن جدّه المصطفى صلى الله عليه وسلم فى النوم، وهو يقول له: «ياحسن زوج نفيسة من إسحاق المؤمن» فما أفاق من نومه حتى بعث إلى إسحاق يستدعيه إليه، فسارع إليه وما إن جلس بين يدي الحسن حتى أخبره برؤياه، وما لبث أن عقد له

على ابنته في حفل جمع جمهرة من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجماعة من أشرف قريش، وكان ذلك في سنة إحدى وستين ومائة، وبعد أن جهزها أبوها وجلبت لزوجها، بنى عليها في دار أبيه جعفر الصادق بالمدينة وهي الدار التي كان يسقى فيها الماء الذي تصدق به جعفر رضى الله عنه، وكانت تلك الدار قبلاً لحارثة بن النعمان الأنصارى الخزرجى. من بنى النجار، وكان من فضلاء صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد قال صلى الله عليه وسلم: دخلت الجنة فسمعت قراءة، فقلت: من هذا؟ فقيل: حارثة بن النعمان، فقال صلى الله عليه وسلم: كذلك البر، وكان براً بأمه، وكان قد ذهب بصره فاتخذ خيطاً في مصلاه إلى باب حجرته، فكان إذا جاءه مسكين أخذ من مكتله شيئاً ثم أخذ بطرف الخيط حتى يناوله، فكان أهله يقولون له نحن نكفيك فيقول: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مناولة المسكين تقى مصارع السوء»، وكان قبالة تلك الدار في الغرب دار الحسن بن زيد، وهو أطم كان الحسن قد ابتاعه فخاصمه فيه أبو عوف النجارى، فهلمه حسن فجعله داراً مشيدة البنيان عالية الأركان تحوطها الكرامة ويرفرف عليها الشرف والجلالة.

وزواج السيد إسحاق من السيدة نفيسة اجتمع في بيتها نوران، نور الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة، فالسيدة نفيسة جدّها الإمام الحسن والسيد إسحاق جدّه الإمام الحسين؛ لأن إسحاق

المؤمن هو ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن عليّ زيد العابدين ابن أبي الشهداء الإمام الحسين عليه السلام، وأمه حميدة البربرية وهي أم إخوته موسى والإمام ومحمد وفاطمة الكبرى رضى الله عنهم.

وكان إسحاق من أهل الفضل والاجتهاد والورع والصلاح، روى عنه الكثير من الناس الحديث والآثار، وكان ابن كاسب يعقوب بن حميد بن كاسب المدني، وينسب إلى جده إذا ما حدث عن إسحاق يقول: حدثني الثقة الرضا إسحاق بن جعفر وناهيك بابن كاسب، فقد كان محدثاً ثقة مأموناً صادقاً.

قال القاسم بن عبد الله بن مهدي: قلت لأبي مصعب: بمن توصيني بمكة وعمن أكتب؟ فقال: عليك بشيخنا أبي يوسف يعقوب بن حميد، وإنما يعرف الفضل من الناس ذوهه، وكان إسحاق وفيّاً لإخوته، وكان من الفضل والورع ما لا يختلف فيه اثنان.

وفي عمدة الطالب: وأما إسحاق بن جعفر الصادق، وبكني أبا محمد ويلقب بالمؤمن، فقد ولد بالعريض، وهو واد بالمدينة، وكان من أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان محدثاً جليلاً وأدعت فيه طائفة من الشيعة الإمامة، وكان سفيان بن عيينة شيخ الإمام الشافعي رضى الله عنها إذا ما روى عنه يقول:

حدثني الثقة الرضا إسحاق بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين رضى الله عنهم. وهو أقل المعقبين من ولد جعفر الصادق عدداً إذ أعقب ثلاثة رجال: محمداً والحسن والحسين وتعرف ذريته بالإسحاقيين.

ويقول المقرئى فى خططه : وتزوج بنفيسة رضى الله عنها إسحاق ابن جعفر الصادق رضى الله عنها، وكان يقال له إسحاق المؤمن، وكان من أهل الصلاح والخير والفضل والدين، روى عنه الحديث، وكان ابن كاسب إذا حدث عنه يقول : حدثني الثقة الرضا إسحاق ابن جعفر، وكان له عقب بمصر منهم بنو الرقى ومجلب بنو زهرة.

وولدت نفيسة من إسحاق ولدين هما القاسم وأم كلثوم.

وفى تهذيب التهذيب : إسحاق بن جعفر روى عن كثير ابن عبد الله بن عمرو بن عوف، وعبد الله بن جعفر الخزومى، وصالح بن معاوية بن عبد الله بن جعفر وغيرهم، وروى عنه إبراهيم ابن المنذر، ويعقوب بن حميد بن كاسب ويعقوب بن محمد الزهرى وغيرهم.

قدم مصر وهو زوج السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور رضى الله عنهم، وقد ذكر فى لسان الميزان : أنه كان يقال له الحزين لأنه لم ير ضاحكاً.

وفي مشتركات الطوبجى : إنه المدوح بروايته عن أبيه، وقد مكث بعد وفاة السيدة نفيسة رضى الله عنها زمنا ليس بالكثير، ثم توفى ودفن بمصر، وقيل : إنه رحل وولده القاسم وأم كلثوم إلى المدينة وتوفى بها وهو الأصح.

نفيسة العلم :

في بيت كريم وبين أسرة طهرها الله سبحانه وتعالى تطهيراً وأذهب عنها الرجس، فتحت السيدة كريمة الدارين عينها، ووعت أذناها كتاب الله العظيم، ولا شك أن الجور الذى كان يحيطها شجعها على ذلك، فأب صالح وأم عابدة، يعبدان الله سبحانه وتعالى ليل نهار، فكان طبيعياً أن تقلدهما، ولعلها سمعت من أبيها تاريخ جديها الإمامين الحسن والحسين، وأمهما الزهراء، وأبيها أمير المؤمنين، وما اقتبسوا جميعاً من رسول الله من أنوار، وما أخذوا عنه من شتى الفضائل والمكرمات.

ولعل والدها تنبأ لها بأنها سيكون لها شأن عظيم بين الصالحين والصالحات، فقد بدأت في سن مبكرة في تلاوة القرآن الكريم بمفردها، ثم عملت على حفظه حتى تم لها ذلك في خلال سنة واحدة فقط، أما العبادات المفروضة، فقد أثر عنها رضى الله عنها أنها كانت تؤدى الصلوات الخمس بانتظام مع والديها في المسجد الحرام، وهى في السادسة من عمرها.

ونشأت كذلك آية من آيات الله تعالى في قوّة الذاكرة والحافظة، صفاء نفس ونقاء حدس، فكان طبيعياً أن تتجه بكل قواها إلى كتاب الله الكريم، فألمت بتفسيره وتأويله فاستجلت غوامضه وخاضت عبابه.

وأخذت وهي تنمو جسماً وعقلاً وروحاً، تقوم الليل وتصوم النهار وتمعن في العبادة والدراسة، فاتجهت بكل روحها إلى دراسة حديث جدها، فروت منه عن أبيها وآل بيتها وعلماء عصرها، وأخذت بحظ وافر من الفقه والعلم، ومن هنا جاء اللقب الذي اشتهرت به «نفيسة العلم».

شغفت بحديث جدها المصطفى عليه الصلاة والسلام، وروت من الحديث والآثار الكثير من أبيها وآل بيتها وعلماء عصرها، وبخاصة الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه بالمدينة، وكان من عادته أن يتصدر مجالس العلم وفي يمينه موطؤه، وحوله العلماء وطلاب العلم وفدوا عليه من سائر الأقطار الإسلامية، ينشر الإمام مالك العلم في أرجاء المدينة، من أرجائها ينساب إلى آفاق العالم المتعطش له، وكانت أحاديث الإمام مالك علنية، وكانت أصدائها تصل إلى السيدة نفيسة فتأخذ ما تضيفه إلى ما جاءت به من مكة من سائر علوم القرآن والحديث، وقد سمع عنها الحديث كثير من علماء مصر والراجلين إليها.

وقد كان ابن خلكان يروى أن الإمام الشافعى رضى الله عنه لما دخل مصر حضر إليها وسمع عنها الحديث.

وقالت زينب بنت يحيى المتوج، وهو أخو السيدة نفيسة رضى الله عنهم : « كانت عمى نفيسة تحفظ القرآن وتفسره وكانت تقرأ القرآن وتبكي، وتقول: إلهى وسيدى يتر لى زيارة خليلك إبراهيم عليه السلام » لأنها كانت تعلم أنه أبو الأنبياء، أى أنه أبو أبيها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاتم الأنبياء، وأنه له بشارة كما ورد فى الأثر وإذن فهو أبوها وجدّها، وكانت تعرف أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « أنا دعوة إبراهيم عليه السلام حيث يقول : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكّهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وحين بلغت المزار ووقفت بين يدى جدث خليل الله قالت : « ما إن بلغت المقام الكريم والضريح العظيم، حتى أجهشت بالبكاء، بكاء السرور لتحقيق أمنيى فى زيارة الخليل، ثم جلست فى خشوع أقرأ من آيات الله ما ورد فى خليل الله » .

وقرأت ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبني أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم * ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا

الصلاة فاجعل أفئدة من الناس. تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات
 لعلهم يشكرون * ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على
 الله من شيء في الأرض ولا في السماء * الحمد لله الذى وهب
 لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء * رب
 اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء * ربنا اغفر لى
 ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب * ولا تحسبن الله غافلاً
 عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم لىوم تشخص فيه الأبصار *
 مهطعين مقنعى رءوسهم لا ىرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء *
 وأنذر الناس يوم يأتىهم العذاب فىقول الذين ظلموا ربنا أخّرنا إلى
 أجل قريب نجب دعوتك وتتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل
 ما لكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم
 وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا
 مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال *
 فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام * يوم
 تبدل الأرض غير الأرض والسموات ويرزوا لله الواحد القهار *
 وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد * سرايبهم من قطران
 وتغشى وجوههم النار * لىجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله
 سريع الحساب * هذا بلاغ للناس ولينذروا به ولعلهم أتوا هو إله
 واحد. وليذكر أولوا الألباب. ﴿

وتقول السيدة كريمة الدارين :

ولما كانت قراءتي في تدبر وتفكر وخشوع وخضوع، أحسست حينئذ إحساساً يقرب من المادية أن الخليل أمامي، وحينئذ خفق قلبي وخشع بصرى، وقلت :

« يا جدى الأكبر، جئت إليك بجسدى وروحى، وقد جاءت روحي من قبلى، فهل أحظى برضاك وصالح دعائك، وتوجيهاتك الشريفة لى حتى أتعبد لآخر لحظة فى حياتى»، وحينئذ سمعت صوتاً مجلجلاً يقول :

« يا ابنتى يا نفيسة، أبشرى فإنك من الصالحات القانتات، وإنك بإذن الله موفقة، إلا أننى أوصيك بأن تقرئى سورة المزمّل حيث يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ * قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً * إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً * إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلاً * إن لك فى النهار سبحاً طويلاً * واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً * رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً * واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً * وذرى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلاً... ﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

وتدبرى معناها، وستعلمين طرق العبادة التى لا مشقة فيها لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وأنت يا ابنتى تتعبدين إلى درجة

الإرهاق الذى يضئى جسدك، ومع ذلك تتحاملين على نفسك وتغرقين فى العبادة.

يا ابنتى اقرئى قول الله تعالى لرسوله الكريم ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار... ﴾ إلى آخر سورة المزمل.

وقد جعل الله العبادة فى الليل اختيارية بعد أن كانت إجبارية لأن الله يعلم أن من عباده من يجاهد فى سبيل الله ويسعى لنيل رزقه، ولا بد له من الراحة ليقوم بعمله.

هذا والجهد عبادة، والسعى فى سبيل الرزق عبادة، وإدارة شئون المنازل للسيدات عبادة، اذكرى ذلك وارحمى نفسك وأعطها قسطها من الراحة، لتقوى على العبادة من غير إرهاق مؤلم، واعلمى أنك موفقة، وأنت مباركة، وأنت فى الصف الأول بين الصالحين والصالحات وكوفى فى جميع خطواتك القدوة الحسنة لغيرك ليقتدى به من أراد الله له الخير والسعادة».

وحيثذ قلت: «يا جدى العظيم، يا جدى الأكبر، سأنفذ هذه التوجيهات، وأرجو من روحك الطاهرة أن تهب روحى صفاء، حتى أبلغ ما أتمناه لنفسى من القربى إلى الله تعالى، حتى ألقاه وهو عنى راض، وهذه هى أمنيتى التى لا أمنية بعدها».

فقال: «يا ابنتى أبشرى فإن الله قد استجاب دعواتك، ولن

أنسك حتى نلتقى في عالم الروح، في عالم الخالدين، ثم بين يدي الله رب العالمين يوم تجزى كل نفس ما عملت والعاقبة للمتقين».

وحجت كريمة الدارين هي وزوجها إسحاق المؤمن، وزارت قبر خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام، وكما قلت حجت في حياتها المباركة ثلاثين مرة أكثرها ماشية على قدميها، وكان القدوة لها في ذلك جدها الإمام الحسن الذي كان يقول: «إن لأستحي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته».

وقالت زينب بنت يحيى^(١) المتوج: «خدمت عمتي السيدة نفيسة أربعين سنة فما رأيتها نامت بليل ولا أفطرت بنهار، إلا العيدين وأيام التشريق».

فقلت لها: أما ترفقين بنفسك؟

(١) يحيى أخوها دفن بمصر، وليس لأخيها يحيى سوى زينب التي صحبت عمتها طوال حياتها، وقد عافت الدنيا وزهدتها فل تزوج، وكان يرى على قبر يحيى نور، قال أبو الذكائر: دخلت إلى قبر يحيى فل أحسن الأدب فسمعت من قبره من يقول: قل: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾.

وليس بمصر من إختها سواء ومشهده معروف بلجاجة الدعاء، وقد دفنت زينب بنت يحيى للمتوج رضى الله عنها بجوار قبر عمرو بن العاص رضى الله عنه، وكان أهل مصر يأتون لزيارة قبرها من كل فج، وكان الظاهر الخليفة الفاطمي يأت إلى زيارتها ماشيا، وكان أهل مصر يجيئون إلى قبرها يستسقون وكان النيل قد توقف فاستسق أهل مصر بها وجأروا إلى ربه فجرى النيل بأن الله تعالى.

فقالت ؛ «كيف أرفق بنفسي وأمامي عقبات لا يقطعهن إلا الفائزون؟» .

وكانت تقول : كانت عمتي تحفظ القرآن وتفسيره، وكانت تقرأ القرآن وتبكي.

وقد سمع منها الحديث وتفسيره والفقهاء كثير ممن قابلوها، فقد سمع منها بمصر غير الإمام الشافعي جمهور كبير من العلماء كذى النون المصري، وعبد الله بن الحكم، وولده محمد وعبد الرحمن، وعبد الرحمن البويطي، والربيعان المرادي والجيزي، وحرملة من أصحاب الإمام الشافعي رضى الله عنهم، وكثيرون غيرهم استفادوا مما أفاضه الله عليها من فيوضات مما سياتى بيانه بعد قليل، وما روته من أحاديث وآثار وفقه وعلم ومعارف نبوية، فإنها رضى الله عنها من أهل البيت اتقوا الله فعلمهم الله، وأثار قلوبهم بنور عرفانه، فكانوا من حملة العلم وحضته، ومن ذوى الفقه والدين والمعرفة واليقين.

وكانت السيدة الورعة زاهدة في دنياها تؤمن بمنهج الزهد وتمارسه، وكان رائدها في طريق الزهد جدّها الأعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أحاطت بسيرته، وكان مرشدها هو ما قال الرسول وما فعل، وقد مالت بطبعها منذ صغرها إلى حياة بعيدة عن زخرف الحياة وزينتها بالرغم من أن أبها كان أميراً

للمدينة وكان بلا شك يعيش عيشة رغدة، ولكنها ما كانت تستشرف إلى لذائذ الدنيا وشهواتها.

وفي بيت أبيها نشأت - بالرغم مما يحاط بها من مظاهر الترف - نشأة الزهادة والتقشف، فثلا كانت قليلة الأكل، ويروى أنها كانت تأكل كل ثلاثة أيام مرة. وكانت لها سلّة معلقة أمام مصلاها، فكانت كلما اشتت شيئاً وجدته في السلّة.

وتقول زينب بنت يحيى: «كنت أجد عندها ما لا يخطر بخاطري ولا أعلم من يأتي به فعجبت من ذلك، فقالت يا زينب من استقام مع الله تعالى كان الكون بيده وفي استطاعته».

وكانت تمضي أكثر وقتها في معيبتها أو حرم جدها المصطفى صلى الله عليه وسلم، على أنه يقال إنها رضيت الله عنها لم تكن سلبية في زهدا تقاطع الحياة مقاطعة تامة كما يفعل الزهاد، وإنما كان هجرها للندنيا واقعاً على كل ما يعوقها عن الله وطاعته ومرضاته، ويعوقها عن العمل لآخرتها والترود لها.

كانت الآخرة وكان الموت نصب عينها، والسليل على ذلك حفرها قبرها بيدها، وقضاؤها شرطاً من وقتها كل يوم تستلهم منه العظا وتستوحى الصالحات.

وهى بعد ذلك زوجة مخلصه لم يشغلها أى أمر عن مسئوليتها كزوجة، وحتى يفاخر بها المؤمنندنيا، ويذكر للناس من حوله أنه

قد وجد فيها نعمة الله عليه، فلم تقصر في حق له أبدًا، ولم يشغلها أى أمر عن حقوقه وواجباته.

وهى أم ترعى الله في زوجها وولدها تغدق بالحنان ولديها أبا القاسم وأم كلثوم، ترعاهما وتؤدبهما حتى يصيرا نموذجا صالحا بشرف الانتساب إلى بيت النبوة.

وهى ربة بيت تشرف عليه.

وهى محبة للعلم والمعرفة حبا جعلها بحق نفيسة العلم.

وتجتمع بذوى الحاجات من الناس وتستمع إليهم، ولهذا شاهد مسكنها في المدينة وفود الزوار من كل بلد إسلامي خصوصا من القادمين في مواسم الحج والراغبين في العلم، وقد كان أكثر هؤلاء الوفود وأشدهم حرصا على لقائها من مصر.

وضاقت دارها بالزائرين كما حدث لها تمامًا في مصر، عندما طلبت الرحيل إلى الحجاز عند أهلها بسبب ازدحام منزلها بالقاصدين إليها، كما سأتى تفصيل ذلك فيما بعد.

فزهت السيدة نفيسة كان إيجابيا نافعًا، كما كان زهد الرسول إيجابيا مثاليا في إيجابيته.

ويقول الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه:

١ - ترك الحرام وهو زهد العوام.

- ٢ - ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص.
- ٣ - وترك ما يشغل العبد عن الله - وهو زهد العارفين.
- وهو زهد السيدة كريمة أهل الدارين شعارها الله أولاً، والمجتمع ثانياً، لله صلاتها ونسكها والله يحياها والله مماتها.

أخلاقها :

كانت رضى الله عنها وأرضاها، كريمة الخليفة، شريفة الطبع، غراء المكرمات، زهراء المآثرات. فقد صاغها الله من معدن كريم وأنبتها نباتاً حسناً، فجمعت خلال الفتوة والمروءة فكانت معطاءة فيآحة فيآضة نفاحة، جمة المبرات كثيرة الصلوات، وهى مع هذا زاهدة متشفقة.

أما ما برأها الله عليه من عزة نفس وحمى أنف، تربأ بنفسها عن مواطن الذل والابتذال، وتتصاون عن الامتهان والهوان، وهى مع هذا لا يذهب بنفسها زهو وكبرياء ولا يخالطها تيه وعجب، بل كانت متواضعة النفس متطامنة الجانب.

سلاسة طبع وسجاجة خلق - وبالإجمال فأخلاقها مقتبسة من أخلاق جددها المصطفى صلى الله عليه وسلم وإنه لعلى خلق عظيم.

وكانت المثل الأعلى فى الوفاء لزوجها على وجه الخصوص، وعرفان حقوقه والقيام بواجباته، وقد ساهمته الإخلاص والود، وقد

عرف فيها هذا الخلق النبيل فكان مثال الطاعة لها فيما تسلكه وتنحيه، لما خالف لها أمراً، ولا وقف لها في سبيل رغبة، بل كان يهيئ لها ما تبغيه، ويسهل لها ما تريده، ولم يبخل عليها بشيء من ماله.

وكانت عطوفة على أسرتها، فها هي تلك بنت أخيها زينب، وقد لمست في عمته العطف، فمادت في خدماتها ونسيت نفسها في سبيل عمته، فلازمتها وأصبحت كظلمها، وعافت الزواج لتنفرد بمخلمتها وتسهر على راحتها وتقضي لها حاجتها، وما رحلة عمته نفيسة بنت زيد إلى مصر إلا شوقاً لبنت أخيها، وكان برّها لخدمتها جوهره ومعاملتها لها أحسن معاملة، فأشرب في قلبها حبها والإخلاص لها إلى ما عرف عنها من إيثار ذورها وبرهم مما جعلها تملك قلوبهم.

وكانت كثيرة الخير والبر، تواسى البائسين وتسعف الملهوفين وتفرج كرب المكروبين، وكان لها مال كثير إلى مال زوجها، تحسن من كل أولئك إلى المرضى والمحتاجين والناس عامة، لما كانت ترد سائلاً ولا تمنع مستجدياً، وكانت تتعرف من به حاجة فتقضى حاجته.

سخية لكل من يتصل بها، ندية لكل من يلوذ بها ويحوم حول رحابها.

وهب لها أحد الأمراء مائة ألف درهم وقال : خذى هذا المال شكراً لله تعالى لتوبتي، فأخذته وصرته صرراً بين يديها وفرقت الصرر عن آخرها، وكان عندها بعض النساء، فقالت لها : يا سيدق، لو تركت لنا شيئاً من هذه الدراهم لنشترى به شيئاً فنفطر عليه.

فقالت لها : « خذى غزلا غزلته بيدي فيبيعه بما تشتري به طعاماً نفطر عليه » فذهبت المرأة وباعت الغزل وجاءت بما أفطرت به هي وإياها ولم تأخذ من المال شيئاً فهي الجوادة بنت الجواد وهي من قوم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

وكانت رضى الله عنها عيوفة عزوفة، لما عرف عنها أنها مدت يدها لمخلوق، وما كانت تأخذ شيئاً مما كان يأتي إليها من منح الأمراء والعظماء بل إنها كانت تبعث به إلى ذوى الحاجات، سخاء نفس وعزة فطرة، وما كانت تنفق على نفسها وأفراد بيتها إلا ما كان من مالها أو مال زوجها أو ما يأتيها مما تغزله بيدها، وكانت لا تأكل طعاماً لغير زوجها.

وهذا أمير مصر السرى بن الحكم، فقد ألح عليها إلحاحاً شديداً في أن تنزل في دار له نزل عنها لها فبعد لأى وجه قبلت أن تنزل في تلك الدار التي وهبها لها، وقد سره قبولها وحمد الله تعالى على ذلك، فهي من آل بيت لا يرضى ذوهه أن يكون لأحد

غير الله تعالى له عليهم نعمة ولا منة، شمعاً وإبائه نفس.
وهذا هو الأمير الذي بعث إليها بمائة ألف درهم فلم تشأ أن
تبيتها أو تدخرها بل وزعتها دون أن تبقى لها منها درهماً.

وكانت السيدة نفيسة رضى الله عنها كثيرة البر والمواساة عطوفة
رحيمة تحنو على القوم وتتحد بهم فتؤويهم إلى ظل رحمتها وتمهد لهم
مهاد رأفتها.

ولم يكن عطفها على ذوى قرباها بأقل أثراً من ذلك، فكثيراً
ما نالهم برها وشملهم خيرها. فهذه بنت أخيها السيدة زينب قد
لاقت من عمتها من الحنان والرأفة والإحسان ما جعلها تخلص إليها
وتتفان في خدمتها، وتقوم لها بما تحتاجه من أمورها، فإن عمتها
ملك قلبها ببرها وعطفها حتى وفات لها أربعين سنة تنشط لخدمتها
وتسهر على حاجتها دون سأم أو ملل.

وكذلك أخلصت لها خادماتها جوهرة لما لمستته من عطف
وحنان، فعاشت في كنفها مسرورة تفديها بنفسها، وتسارع إلى تلبية
ندائها وقضاء حاجتها، وهؤلاء جيرانها وقد عرفوا برها وعطفها،
فكانوا يودونها ويثقون بها حتى أولئك الذين كانوا يخالفونها في دينها،
فهذه جاريتها اليهودية لم تأمن على وحيدتها إلا الشريفة السيدة
نفيسة بالرغم من وجود جمهرة من اليهود أبناء شيعتها يجاورونها، غير
أنها لم تر فيهم أحداً موضع ثقتها، فتودع عنده فلذة كبدها إلى أن

تعود من حمامها، فلم تجد غير تلك الأمانة العطوفة، فتركها عندها
فنالت من بركتها مما سياتى في حينه.

فالبر والعطف آيتان محبتان، بهما تملك القلوب وتؤسر الأنفذة
إلى ما رأيناه من إقبال الناس عليها، فوق ما لمسوه من بركاتها،
وما عرفوه من نفحاتها.

من بلد الرسول إلى القاهرة :

ولدت السيدة نفيسة بمكة، ثم انتقلت إلى المدينة بصحبة أبيها
ولبت بالمدينة إلى أن رُوِّعت بحبس المنصور لأبيها من سنة ١٥٦ إلى
سنة ١٥٩ حين أخرجه المهدي من حبسه وردّ عليه ماله، واستمرت
في المدينة وعاشت في ظل أبيها قسرية مسرورة إلى أن تزوجها
إسحاق المؤمن وبنى عليها في بيت أبيه بالمدينة، فعاشت ردحًا من
الزمن، فكانت تتشوق لزيارة قبر أبيها الخليل إبراهيم عليه الصلاة
والسلام، ثم زارت بغوطة دمشق، مقام السيدة زينب بنت أم كلثوم
بنت عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنهم، ثم زارت قبر عمته
فاطمة بنت الحسن ابن علي رضي الله عنهم إذ أنها مدفونة بمغارة
وعند قبرها رخامة مكتوب عليها :

أسكنت من كان في الأحشاء مسكنه بالرغم مني بين التراب والحجر
أفديك فاطمة بنت ابن فاطمة بنت الأمة بنت الأنجم الزهر

وزارت قبر فضة جارية جدتها فاطمة الزهراء رضى الله عنها
وغير أولئك.

وفي دمشق استقبلها جمهور كبير من العلماء هرعوا للتسليم عليها
والتماس دعائها وبركتها، وفي مقدمتهم الشيخ الكبير العارف بالله
أبو سليمان الداراني، وكان رجلاً صالحاً زاهداً وله كلام رفيع في
التصوف والوعظ، ومحدث الشام أبو العباس الوليد بن مسلم
الدمشقي، وكان إماماً حافظاً، والإمام أبو بكر الدمشقي مروان
بن محمد الطاطري، وكان صالحاً خاشعاً عابداً، وغير أولئك من
علماء الشام ومحدثيه وصلحائه، يرجون منها دعاءها ويلتمسون ببركتها
ويسمعون عنها ما تحدث به من حديث جدها المصطفى صلى الله
عليه وسلم.

وفي يوم السبت الموافق ٢٦ رمضان ١٩٣ هـ. وصلت السيدة
كريمة الدارين إلى مصر قبل أن يقدم إليها الإمام الشافعي رضى الله
تعالى عنه بخمس سنين، وكان ذلك في ولاية الحسن بن الجبلح
والى مصر من قبل الرشيد.

وفي العريش استقبل أهل مصر السيدة نفيسة رضى الله عنها
أحسن استقبال، فقد أحبها الشعب المصرى قبل قدومها إليه حيث
سمع عن أنبائها بالمدينة بلد الرسول عليه الصلاة والسلام، وتلقتهما
النساء والرجال بالهوادج والخيول مرحبين، يهللون ويكبرون ولم يزالوا

معها إلى أن دخلت مصر، فأنزلها عنده كبير التجار بمصر جمال الدين عبد الله الجصاص، وكان من أهل الصلاح ومن أصحاب المعروف والبر والصدقة والمحبة في الصالحين والعلماء والسادة الأشراف، فنزلت عنده في داره معززة مكربة مبعجلة فأقامت بها عدة شهور، والناس يفلدون إليها زرافات ووحداناً من سائر مدن القطر ومن جميع الآفاق، يتلمسون بركتها ويرجون دعاءها، ويرون في إشراقها إشراقاً بيت النبوة وعرة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وكانت سيدة من المصريين تسمى بأم هانئ لها دار رحبية بجهة المراغة والقبر الطويل بالمصاصة أو المنصوصة، فرجت من السيدة نفيسة النزول في دارها، وكانت امرأة ورعة تقية سالحة، فقبلت السيدة نفيسة وانتقلت إلى تلك الدار، فلم يتقطع عنها الزوار وانهاال عليها الناس من كل حذب وصوب من طلاب الحاجات وراغبي الدعوات وملتمسي النفحات والبركات، ويعودون جميعاً وقد استجاب الله دعاءها، وقضى لهم حاجتهم وكشف كربهم.

وقد كان يجاور بيت أم هانئ رجل من اليهود يقال له أبو السرايا أيوب بن صابر، وله بنت مقعدة، وفي يوم من الأيام توجهت بها أمها إلى السيدة نفيسة واستأذنتها في بقائها في حماها إلى أن تعود من حمامها، فتركتها في ردهة الدار ومضت إلى الحمام حتى إذا جاء وقت صلاة الظهر نهضت السيدة نفيسة لوضوئها والبنت

القعيدة ترقبها وتستشرف إلى ما تصنعه السيدة. وكان ماء الوضوء يجرى في مجرى بالردهة إلى بئر تحت عتبة الدار، فألمه الله عز وجل البنت أن تزحف من مكان قعدتها وتصل إلى ذلك المجرى زاحفة فأخذت في تقليد السيدة فيما تفعله من غسل وجهها ويديها ورجليها، وما إن غسلت رجليها من ذلك الماء الذي يسيل في المجرى من فضل وضوء السيدة، حتى كأنما نشطت من عقابها وزال عنها كساحها وشفافها الله سبحانه وتعالى مما بها، فهضت قائمة مسرعة في الخروج إلى الدرب خارج الدار تلعب مع لداها، والسيدة في شغل عنها بعبادتها وصلاتها فلما حضرت أم البنت إذ بها تجدها وقد زال عنها ما أقعدها وهي قائمة على قدميها كأنه لم يكن بها شيء، فاحتضنتها وهي نشوانة مأخوذة مما رأت من شفاء بنتها وعافيتها، فسألها عن أمرها فأخبرتها بجزية الأمر، وما كان من غسلها رجليها من فضل ماء الوضوء فبكت الأم بكاء شديداً، وقالت: لا رب في أن دين تلك السيدة الشريفة هو الدين الصحيح، ودخلت على السيدة في خشوع وخضوع وإجلال واحترام.

ووقفت بين يديها تحييها ثم نطقت بالشهادتين وأخلصت لله رب العالمين، وشكرت للسيدة صنيعها وجميلها وحمدت الله عز وجل على أن أخرجها من الظلمات إلى النور، وأنقذها من الضلال إلى الهدى.

ولما حضر والد البنت وكان من كبار قومه وسراة عشيرته، ورأى وحيدته وقد تعافت فصَحَّ جسمها واستقام عودها وذَهَبَتْ شكاياتها، فأخذته الأريحية واستطاره الفرح فأخذ يصفق ويرقص ولم يلبث أن نبأته أمها بخرها وما حاطها من بركة السيدة الشريفة جارتهم، فما إن انتهت زوجه من إخباره حتى رفع بصره ومد يده إلى السماء. وقال: سبحانك ربنا تهدي من تشاء وتضل من تشاء اللهم إني أشهدك أن هذا الدين هو الدين الصحيح، والدين عند الله الإسلام وأنه لا دين غير الإسلام. ثم توجه من فوره إلى دار السيدة نفيسة واستأذنها في الدخول فأذنت له فكلما وهي من وراء حجاب، وبعد أن حياها وشكر لها صنيعها قال: سيدتي ارحميني وتشفعي لي واشفعي فيمن هو في ضلال الكفر قد تاه. ومن الدين الحق أبعده الكفر وأقصاه.

فرفعت السيدة نفيسة طرفها إلى السماء، ودعت الله عز وجل له بالهداية.

فما إن انتهت من دعائها حتى نطق أبو السرايا بالشهادتين، وسرى الخبر في تلك الجهة فأسلم أهلها، وكانوا أكثر من سبعين بيتاً من اليهود، ثم استأذن أبو السرايا من السيدة نفيسة أن تنتقل إلى دار له بدرب الكرويين المعروف الآن بالحسينية، وهذه الدار باقية للآن، وكذلك الحجرة التي كانت تتعبد فيها باقية، وهي محل إجلال وإكبار، ولا يدخلها إلا من عهد إليه بنظافتها.

وسأعود بعد قليل إلى الكلام عن كرامات السيدة الصالحة، على أنه ما كادت تداع تلك الكرامة حتى هرع إليها القوم من جميع الجهات يلتمسون بركاتها ودعواتها فتكاثرت الجموع على بابها، وضاعت بهم الدار بما رحبت ففكرت ملياً في مغادرة مصر حيث تعود ثانياً إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، لتقضى بقية عمرها في هدوئها وعبادتها ومناجاة بارئها، وتلتزم حرم جدّها المصطفى صلى الله عليه وسلم، فاشتد ذلك على أهل مصر وشق عليهم أن تفارقهم وقد لمسوا نفعاتها، وعرفوا هداها وتقواها، وما أفاضه الله تعالى عليها من فيوضات وما يحيطه بها من تجليات ومشاهدات فاتمسوا منها العدول عن عزمها ورجوها البقاء بين ظهرانيهم، فأبى عليهم طلبهم وصارحتهم بأنها تريد انفرادها لعبادة ربها، ولا يشغلها منهم شاغل، ولما رأوا منها إصراراً على مغادرة الديار، ولّوا وجوههم نحو والى مصر السرى بن الحكم بن يوسف^(١).

(١) السرى بن الحكم بن يوسف مولى بنى ضبة. وأصله من بلخ وقد ولي إمرة مصر بإجماع الجند وأهل مصر على الصلاة والخروج معاً، وذلك في مستهل شهر رمضان سنة مائتين بعد عزل المطلب بن عبد الله الخزازي عنها، وقد سكن العسكر على عادة أمراء مصر.

وكان السرى أميراً جليلاً، معظماً في الدول وفي الأعمال وتنقل في البلاد، وقد توفى سنة خمس ومائتين، فولد ابنه محمد إمرة مصر بعد وفاة أبيه، فكان على غرار أبيه إلى أن توفى سنة ست ومائتين، فولد لها أخوه عبد الله بن السرى، وقد بقى في ولايته إلى أن عزله الملمون في ربيع الأول سنة إحدى عشرة ومائتين.

وكان آل السرى يُكَبِّرون السيدة نفيسة ويعظمونها ويكثرون من زيارتها وتعهدوا ويعرضون عليها خدمتهم إياها، وما إن ذهبت جمهرة من محبيها إلى السرى يخبرونه بعزمها، ويسألونه أن يتوسل إليها في العدول عن عزمها. فانتقل السرى إليها يستعطفها ويرجو بقاءها بمصر.

فقالت: «إني كنت قد اعتزمت المقام عندكم، غير أني امرأة ضعيفة، وقد تكاثرت الناس حولي وأكثروا من زيارتي. فشغلوني عن أورادي وجمع زادي لمعادي، غير أن منزلي هذا يضيق بهذا الجمع الكثيف والعدد الكثير، وقد زاد حنيني إلى روضة جدى المصطفى صلى الله عليه وسلم».

فقال لها السرى: «يا ابنة رسول الله إني كفيل بإزالة ما تشكين منه، وسأهد لك السبيل وأهيب لك ما فيه راحتك ورضاك، أما ضيق المنزل فإن لي دارًا واسعة بدرب السباع، وإني أشهد الله تعالى أني قد وهبتها لك وأسألك أن تقبلها مني ولا تحجليني بردها علي».

فقالت بعد سكوت طويل: «إني قد قبلتها منك».

ثم قالت: «يا سرى كيف أصنع بهذه الجموع الكثيرة والوفود الغفيرة؟».

فقال: «تتفقين معهم على أن يكون للزوار في كل جمعة

يومان، وبقى الأسبوع تتفرغين لعبادتك وخلعة مولاك، فاجعلى يومى السبت والأربعاء للناس».

فقبلت منه ذلك وانتقلت إلى داره وخصصت للزيارة يومى السبت والأربعاء من كل أسبوع.

أولياء الله وكرامتهم:

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يقول الله من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها، فبى يسمع وى يبصر وى يبطش وى يمشى، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله تردى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه».

ولقد آمن أولياء الله بالله، ووالوه فأحبوا ما أحب وأبغضوا ما أبغض، ورضوا بما يرضى به وسخطوا على ما يسخط، وأمروا بما أمر ونهوا عما نهى، وآمنوا برسوله واتبعوا النور الذى أنزل معه ظاهراً وباطناً، فكانت لهم كراماتهم.

والكرامة أمر خارق للعادة يكرم الله بها من يشاء من أوليائه وأصفيائه، ويحبو بها عتره نبيه صلى الله عليه وسلم على أن تكون

غير مقرونة بدعوى النبوة، وفيها تثبيت لهم وإظهار لفضل الله عليهم ونفحته لهم ولحتمه بهم.

وهي جائزة عقلا إذ هي من جملة الممكنات التي لا تستحيل على القدرة الإلهية، وهي مظهر من مظاهر رضوان الله وزلفاه، وقد غمر الله سبحانه وتعالى آل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم بفضله، وشعلمهم بفيوضاته فظهرت على أيديهم الكرامات، وتتابع منهم على الناس البركات والنفحات، من إجابة الدعوات وكشف الكربات وقضاء الحاجات، وقد اتفق علماء السنة على جوازها، وأن الله عز وجل اختص بها من أحب من عباده وأوليائه وأصفائه وآل بيت نبيه الطاهرين، وعترته رسوله المباركين، وآية ذلك ما ورد في كتاب الله تعالى، قال عز شأنه ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، إذ لا خوف عليهم من حقوق مكروه، ولا هم يحزنون من فوات مطلوب، فالله يتولاهم وينجز لهم طلبهم ولو كان خارقاً للعادة فهم يتولونه بطاعته ويتولاهم بكرامته ونعمته.

وقال تعالى: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً، قال يا مريم أنى لك هذا، قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ إذ كانت تأتيها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، وهذا خارق للعادة إرادة لرفعة شأنها، ولذا دعا زكريا ربه بمكانها الطاهر ليرزقه ولذا في شيخوخته كرامة له وكرامة مريم على ربه.

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذِ اعْتَرَقْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ فما شملهم به من رعايته إلى بقائهم تلك السنين الطوال في نومهم سالفين، وقد خرجوا سالمين، ذلك كله أمر خارق للعادة، على أن كرامة الولي هي آية معجزة النبي صلى الله عليه وسلم.

ولله در البوصيري حيث يقول :

والكرامات منهم معجزات حازها من نوالك الأولياء
وفي أولياء الله يقول فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد بن حنيت :
يقول الله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ *﴾ لهم البشرى في الحياة الدنيا
وفي الآخرة لا تبديل للكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم، وقال
تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾
فأنت ترى أن الله تعالى قد بين لنا أنه سبحانه وتعالى له أولياء،
وأن هؤلاء الأولياء هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، وبين حالهم في
الدنيا فقال : ﴿لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي أنهم بلغ من
أمرهم في معاملاتهم وكافة شؤونهم أن شيئاً مما قدر لهم لا يفوتهم
ولا يحزنون على شيء قد فاتهم لأنهم يعلمون حق العلم أن كل
ما قدره الله لهم وعلم أن يكون لهم، لا بد أن يصل إليهم، فلا

يفوتهم منه شيء فهم مصدقون بالقضاء والقدر، فإن فاته شيء مما يطلبه لا يحزن على فوته لاعتقاده أنه لم يقدر له، ولو قدر له ما فاته كما أن ما وصل إليه إنما وصل بقضاء الله وقدره، فهو واثق بالله تمام الوثوق، ولذلك وعدهم بأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ووصفهم أيضًا بأنه يخرجهم من الظلمات إلى النور بسبب إيمانهم، كما يشعر بذلك تعليق الحكم بإخراجهم بالإيمان الذي استفيد من الموصول والصلة.

فالوحي شرعًا بمقتضى هاتين الآيتين هو من يتولى الله تعالى ويتخذة مولى له، فيؤمن به ويتقيه ويمثل أوامره، ويمتنع نواهيه، ويتولاه الله تعالى بأن يوفقه فيخرجه من ظلمات الجهل إلى نور العلم، فكل مؤمن له قسط من الولاية على قدر قسطه من إشراق نور الإيمان في قلبه وتقواه، أو شرح صدره للإيمان والإسلام، وإذن فكل مؤمن وحي، وإنما تختلف درجات الولاية على حسب اختلاف درجات التقوى، فمن المؤمنين من يتقى الخلود في النار بأن يكون مؤمنًا عاصيًا، ومنهم من يتقى دخول النار بأن يكون مؤمنًا مطيعًا لله في كل أعماله مراقبًا له تعالى في سرّه وجهره، معتقدًا تمام الاعتقاد أن الله تعالى معه أينما كان، وأنه لا يكون في شأن ولا يعمل من عمل إلا والله معه حين يفرض في الشأن أو العمل، راجيًا ثواب الله تعالى خائفًا من عقابه.

وقد عرّف علماء الكلام الوحيّ بأنه هو العارف بالله تعالى

وصفاته، المواظب على الطاعات والمجتنب للمعاصي، المعرض عن الانهالك في اللذات والشهوات، فهو القائم بحقوق الله وحقوق العباد حسب الإمكان؛ ولذلك قال عبد السلام صاحب الجوهرة في الولى إنه هو من تولى الله تعالى أمره فلم يكله إلى نفسه ولا إلى غيره لحظة، أو الذى يتولى عبادة الله تعالى وطاعته، فعبادته تجرى على التوالى من غير أن يتخللها عصيان، وكلا المعنيين واجب تحققه حتى يكون الولى ولياً عندنا فى نفس الأمر.

وهذا الولى بالمعنى الأخص وهو المراد من قول صاحب الجوهرة :

وأثبتن لأوليا الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه
فهو الولى الذى تظهر على يديه الكرامة.

وأما الولى بالمعنى الأعم، فهو الذى يشمل كل مؤمن، ويتحقق فيه المعنيان متى تحقق فيه الإيمان المنجى من الخلود فى النار، سواء انضم معه الإيمان والتقوى المنجيان من الدخول فى النار أم لا ، بخلاف الولى بالمعنى الأخص الذى تقدم.

وقال علماء الكلام : (يجب الاعتقاد بأن لأولياء كرامة حال حياتهم فى الدنيا وبعد موتهم يوم القيامة، والمراد أنه يجب على كل مكلف أن يعتقد الكرامة أى حقيقتها بمعنى جوازها ووقوعها لهم، كما ذهب إليه جمهور أهل السنة، ومعنى الكرامة أمر خارق للعادة،

عادة البشر غير مقرون بدعوى نبوة، ولا هو مقدمة لها يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعة، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح، علم بها أو لم يعلم بعدم الاقتران المذكور عن المعجزة، فلا تلتبس بها وينفى مقدمتها عن الإرهاص، وما يظهر على يد الأنبياء قبل النبوة كتظليل الغمام لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم).

وأما الدليل على جواز وقوع الكرامات للأولياء بعد مماتهم، فهو ما نقله الحافظ عبد العظيم المنذرى في كتاب الترغيب والترهيب حيث قال عن ابن عباس رضى الله عنهما: (ضرب بعض الصحابة خبائه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم هي المانعة، هي المنجية من عذاب القبر) رواه الترمذى.

ويقول الحموى: «وفى هذا دليل على وقوع الكرامة بعد الموت بتقصيره صلى الله عليه وسلم حيث أقر قراءة الميت سورة الملك وقال: هي المانعة هي المنجية من عذاب القبر».

ويقول العلامة التفتازانى: (إن ما يظهر من الخوارق بعد موت الأنبياء يكون كرامة لهم لا معجزة).

وعلى ذلك فما يظهر من التصرفات على يد الأولياء، ولا يخالف الدين، لأن هذا التصرف الذى ينسب للأولياء هو نوع من

الكرامات، وهو فعل الله وخلقه يظهره الله إكراماً لهم، تارة بإلهام، وتارة بمنام، وتارة بدعائهم، وتارة بفعلهم واختيارهم، وتارة بغير اختيار ولا قصد ولا شعور منهم، بل قد يحصل من الصبي المميز وتارة بالتوسل إلى الله تعالى بهم في حياتهم وبعد مماتهم مما هو يحكى في القدرة الإلهية، ولا يقصد الناس بسؤالهم ذلك قبل الموت وبعده نسبتهم إلى الخلق والإيجاد والاستقلال بالأفعال، فإن هذا لا يقصده مسلم ولا يخطر ببال أحد من العوام فضلاً عن غيرهم، فصرف الكلام إليه ومنعه من باب التلبس في الدين والتهویش على عوام الموحدين، فلا يظن بمسلم بل ولا بعامل توهم ذلك فضلاً عن اعتقاده، وكيف بالكفر أو بمخالفة القرآن على من اعتقد ثبوت التصرف لهم في حياتهم وبعد مماتهم، حيث كان مرجع ذلك كله إلى قدرة الله تعالى خلقاً وإيجاداً.

أما ما ورد في الآثار من الكرامات، فما ظهر عن الخلفاء الراشدين، فإن الصديق أبا بكر رضى الله عنه لما حملت جنازته إلى باب قبر النبي صلى الله عليه وسلم، ونودى السلام عليك يا رسول الله، هذا أبو بكر بالباب، فإذا بهاتف يهتف من القبر: أدخلوا الحبيب إلى الحبيب.

وأما أبو حفص عمر رضى الله عنه فقد ظهرت له كرامات كثيرة، فإنه قد بعث جيشاً وأمر عليه رجلاً يدعى سارية بن

الخصين، فبينما عمر يخطب يوم الجمعة جعل يصيح في خطبته وهو على المنبر: ياسارية الجبل، قال على كرم الله وجهه، فكتبت تاريخ تلك الكلمة، فقدم رسول مقدم الجيش، فقال: يا أمير المؤمنين، غزونا يوم الجمعة في وقت الخطبة، فهزمتنا الأعداء، فإذا بصوت يقول: (يا سارية الجبل، فأسندنا ظهورنا إلى الجبل، فهزم الله الكفار وظفرنا بالغنائم العظيمة ببركة هذا الصوت).

ويذهب بعضهم إلى أن ذلك معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم، إذ أنه قال لأبي بكر وعمر: «أنتم مني بمنزلة السمع والبصر» فلما كان عمر بمنزلة البصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا جرم إذا قدر على أن يرى سارية وجيشه من ذلك البعد العظيم.

وكان من عادة المصريين ألا يجرى نيلهم حتى يلتقى فيه جارية حسناء، فبعد الفتح كتب عمرو بن العاص بذلك إلى عمر، فكتب عمر على خرقة: (أيها النيل، إن كنت تجرى بأمر الله فاجر، وإن كنت تجرى بأمرك فلا حاجة بنا إليك) فألقيت تلك الخرقة في النيل، فجرى بإذن الله تعالى ولم يقف بعد ذلك.

وجاء إلى عمر رسول ملك الروم فطلب دار عمر وقد ظن أن داره مثل قصور الملوك، فقالوا: ليس له ذلك، وإنما هو في الصحراء يضرب اللبن، فلما ذهب إلى الصحراء رأى عمر وقد وضع درته تحت رأسه ونام على التراب، فعجب الرسول من ذلك،

وقال : إن أهل الشرق والغرب يخافون من هذا الإنسان وهو على هذه الصفة، ثم قال في نفسه : إني وجدته خاليًا فأقتله وأخلص الناس منه، فلما رفع السيف أخرج الله عز وجل من الأرض أسدين فقصداه فخاف وألقى السيف من يده وانتبه عمر ولم يرس شيئًا، فسأله عن الحال فذكر له الرائحة وأسلم.

وكان لعليّ مولى وقد سرق - وكان عبدًا أسود فأق به إلى عليّ فأقر فقطع يده، فلقبه سلمان الفارسي وابن الكواء.

فقال : قطع يدي أمير المؤمنين ويعسوب المسلمين وختن الرسول وزوج البتول. قال ابن الكواء : قطع يدك وتمدحه؟

فقال ولم لا أمدحه وقد قطع يدي بحق وخلصني من النار. فأخبر سلمان عليًا بذلك، فدعا الأسود ووضع يده على ساعده وغطاه بمنديل ودعا بدعوات، فإذا بصوت من السماء : أن ارفع المنديل عن اليد، فرفعناه فإذا اليد قد برئت بإذن الله تعالى وجميل صنعه.

ولما طعن الخليفة سيدنا عثمان رضى الله عنه كانت أول قطرة من دمه وقعت على المصحف على قوله تعالى : ﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾.

أما سائر الصحابة فأحوالهم في هذا الباب كثيرة، وقد اكتفينا

بهذا القدر وثمت دلائل عقلية وقطعية على جواز الكرامات من وجوه :

أولاً : أن العبد ولى الله تعالى، قال الله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، والرب ولى العبد، قال عز وجل : ﴿اللَّهُ وَلى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فثبت أن الرب ولى العبد، وأن العبد ولى الرب، وأيضاً الرب حبيب العبد. والعبد حبيب الرب، قال الله تعالى : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ وقال : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، وإذا ثبت هذا نقول : إن العبد إذا بلغ فى الطاعة إلى حيث يفعل كل ما أمره الله، وكل ما فيه رضاه، وترك كل ما نهى الله وزجر عنه، فكيف يبعد أن يفعل الرب الرحيم الكريم مرة واحدة ما يريده العبد، بل هو أولى لأن العبد مع ضعفه وعجزه لما فعل كل ما يريده الله ويأمر به فلأن يفعل الرب الرحيم التقدير به مرة واحدة ماأراده العبد كان أولى : ولهذا قال الله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بعهدى أوف بعهدكم﴾.

ثانياً : على أنه لو امتنع إظهار الكرامة، لكان ذلك إما لأن الله تعالى ليس أهلاً لأن يفعل مثل هذا الفعل، أو لأن المؤمن ليس أهلاً لأن يعطيه الله مثل هذه العطية، والأول قدح فى قدرة الله تعالى وهو كفر، والثانى باطل، فإن معرفة ذات الله وصفاته

وأفعاله وأحكامه وأسمائه ومحبة الله وطاعته والمواظبة على ذكره وتقديسه وتمجيده وتهليله، أشرف من إعطاء رغيف واحد في مفازة، أو تسخير حية أو أسد، فلما أعطى المعرفة والمحبة والذكر والشكر من غير سؤال فلأن يعطيه رغيفاً في مفازة أو يسخر ما يسخره أقرب ولا بعد فيه.

ثالثاً: وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حكاية عن رب العزة: «ما تقرب عبد إني بمثل أداء ما افترضت عليه، فلا يزال يتقرب إني بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً وقلباً وبدناً، ورجلاً، بي يسمع وبى يبصر وبى ينطق وبى يمشى» وهذا الخبر يدل على أنه لم يبق في سمعه نصيب لغير الله تعالى، ولا في بصره ولا في سائر أعضائه إذ لو بقى هناك نصيب لغير الله جل شأنه لما قال أنا سمعه وبصره، فإذا ثبت هذا فنقول: «لا شك أن هذا المقام أشرف من تسخير الحية والسبع، وإعطاء الرغيف وعنقود من العنب أو شربة من الماء، فلما أوصل الله برحمته عبده إلى هذه الدرجات العالية، فأى بعد في أن يعطيه رغيفاً واحداً أو شربة ماء في مفازة».

رابعاً: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكياً عن رب العزة: من آذى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة. فجعل إيذاء الولي قائماً مقام إيذائه، وهذا قريب من قوله تعالى: ﴿إن الذين

يباعونك إنما يبايعون الله ﴿ وقال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ .

وقال : ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة ﴾ فجعل بيعة محمد صلى الله عليه وسلم، بيعة مع الله عز وجل، ورضاء محمد صلى الله عليه وسلم، رضا الله جل جلاله، وإيذاء محمد صلى الله عليه وسلم إيذاء الله سبحانه، فلا جرم إذا كانت درجة محمد صلى الله عليه وسلم أعلى الدرجات، وكان واصلاً إلى أبلغ الغايات.

فكذا هنا لما قال من آذى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة، فدل ذلك على أنه تعالى جعل إيذاء الولي قائماً مقام إيذاء نفسه، ويتأكد هذا بالخبر المشهور أنه تعالى يقول يوم القيامة : مرضت فلم تعدن، واستسقيتك فما سقيتني، واستطعمتك فما أطعمتني، فيقول : يارب كيف أفعل هذا وأنت رب العالمين؟ فيقول : إن عبدى فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدت ذلك عندي، وكذلك في السق والإطعام فدللت هذه الأخبار على أن أولياء الله يبلغون إلى هذه الدرجات فأى بعد في أن يعطى الله تعالى ولياً من أوليائه كسرة خبز أو شربة ماء أو يسخر كلباً أو ذئباً أو يطوى له أرضاً ويقرب منه بعيداً.

خامساً وأخيراً^(١) : فإن الكرامة مبنية على القوانين العقلية الحكيمة، فإن جوهر الروح ليس من جنس الأجسام الكائنة الفاسدة المتعرضة للتفوق والتهمزق، بل هو من جنس جواهر الملائكة وسكان عالم السموات ونوع القديسين المطهرين، إلا أنه لما تعلق بهذا البدن واستغرق في تدبيره، صارت في ذلك الاستغراق إلى حيث نسي الوطن الأول والمسكن المتقدم، وصار بالكلية متشبهًا بهذا الجسم الفاسد، فضعفت قوته وذهبت مكنته، ولم يقدر على شيء من الأفعال العظيمة. أما إذا استأنست بمعرفة الله ومحبته، وقل انغماسها في تدبير هذا البدن، وأشرقت عليها أنوار الأرواح السماوية العرشية المقدسة، وفاضت عليها من تلك الأنوار أضواؤها القدسية، قويت على التصرف في أجسام هذا العالم مثل قوة الأرواح الفلكية على هذه الأعمال، وذلك هو الكرامات، وفيه لمحة رائعة وهو أن الأرواح البشرية مختلفة بالماهية ففيها القوية والضعيفة، وفيها النورانية والحالكة وفيها الصافية والكدرية، وفيها الحرة والمستعبدة، وفيها العزيزة والذليلة. والأرواح الفلكية أيضًا كذلك ألا ترى إلى جبريل عليه السلام كيف قال الله تعالى في وصفه : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مَطَّاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ .

وقال في قوم آخرين من الملائكة : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي

(١) كريمة الدارين : للأستاذ أحمد فهمي.

السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً».

فكذا ههنا فإذا اتفق في نفس من النفوس كونها قوية القوة القدسية العنصرية مشرقة الجوهر علوية الطبيعة، ثم يضاف إليها أنواع الرياضات التي تزيل عن وجهها غبرة عالم الكون والفساد أشرقت وتلألأت وقويت على التصرف.

منكرو الكرامات:

أما منكرو الكرامات فحجتهم ما يأتي:

١ - يقولون: إن ظهور الخارق للعادة جعله الله تعالى دليلاً على النبوة، فلو أنه حصل لغير نبي لبطلت هذه الدلالة؛ لأن حصول الدليل مع عدم المدلول يقدر في كونه دليلاً، وذلك باطل.

ويرد الأستاذ أحمد فهمي على هذه النقطة بقوله: «إن الناس اختلفوا في أنه هل يجوز للوحي دعوى الولاية؟» فقال قوم من المحققين إن ذلك لا يجوز، فعلى هذا القول يكون الفرق بين المعجزات والكرامات. أن المعجزة تكون مسبقة بدعوى النبوة والكرامة لا تكون مسبقة بدعوى الولاية، والسبب في هذا الفرق أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: إنما بعثوا إلى الخلق ليصيروا دعاة للخلق ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان ومن المعصية إلى الطاعة، فلو لم تظهر دعوى النبوة لم يؤمنوا

به، وإذا لم يؤمنوا به بقوا على الكفر، وإذا ادّعوا النبوة وأظهروا المعجزة آمن القوم بهم، فإقدام الأنبياء على دعوى النبوة ليس الغرض منه تعظيم النفس بل المقصود منه إظهار الشفقة على الخلق حتى ينتقلوا من الكفر إلى الإيمان، أما ثبوت الولاية للوئى فليس الجهل بها كفرا ولا معرفتها إيمانا فكان دعوى الولاية طلباً لشهوة النفس فعلمنا أن النبي يجب عليه إظهار دعوى النبوة والوئى لا يجوز له إظهار دعوى الولاية فظهر الفرق.

أما الذين قالوا: إنه يجوز للوئى أن يدعى الولاية، فقد ذكروا الفرق بين المعجزة والكرامة من وجوه:

(أ) أن ظهور الفعل الخارق للعادة يدل على كون ذلك الإنسان مبرأ عن المعصية، ثم إن اقترن هذا الفعل بادعاء النبوة، دل على كونه صادقاً في دعوى النبوة، وإن اقترن بادعاء الولاية دل على كونه صادقاً في دعوى الولاية، وبهذا لا يكون ظهور الكرامة على الأولياء طعنًا في معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(ب) أن النبي صلى الله عليه وسلم يدعى المعجزة ويقطع بها والوئى إذا ادعى الكرامة لا يقطع بها، لأن المعجزة يجب ظهورها أما الكرامة فلا يجب ظهورها.

(ج) أنه يجب نفي المعارضة عن المعجزة، ولا يجب نفيها عن

الكرامة.

(د) أنه لا يجوز ظهور الكرامة على الولى إذا ادعى الولاية، إلا إذا أقر عن دعواه بكونه على دين ذلك النبي، ومتى كان الأمر كذلك، صارت تلك الكرامة معجزة لذلك النبي، ومؤكدة لرسالته، وبهذا التقدير لا يكون ظهور الكرامة طاعناً في نبوة النبي، بل بصير مقبولاً لها.

٢ - تمسك المنكرون بقوله صلى الله عليه وسلم، حاكياً عن رب العزة سبحانه «لن يتقرب المتقربون إلىّ بمثل أداء ما افترضت عليهم». فقالوا: هذا يدل على أن التقرب إلى الله بأداء الفرائض، أعظم من التقرب إليه بأداء النوافل، ثم إن المتقرب إليه بأداء الفرائض، لا يحصل له شيء من الكرامات، فالتقرب إليه بأداء النوافل أولى ألا يحصل له ذلك.

والرد على ذلك: أن التقرب بالفرائض وحدها أكمل من التقرب بالنوافل، أما الولى فإنما يكون ولياً إذا كان آتياً بالفرائض والنوافل، ولا شك أن يكون حاله أتم من حال من اقتصر على الفرائض، فظهر الفرق.

٣ - وتمسكوا بقوله تعالى: ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾، والقول بأن الولى ينتقل من بلد إلى بلد بعيد، لا على هذا الوجه طعن في هذه الآية، وأيضاً فإن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يصل من مكة إلى المدينة إلا في أيام

كثيرة مع التعب الشديد، فكيف يعقل أن الوئى ينتقل من بلده إلى مكة للحج في يوم واحد.

والرد على ذلك : أن قوله تعالى : ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾، محمول على المعهود المتعارف، وكرامات الأولياء أحوال نادرة فتصير كالمستثناة من ذلك العموم.

٤ - وقالوا : إن هذا الوئى الذى تظهر عليه الكرامات إذا ادعى على إنسان درهما فهل نطالبه بالبينة أو لا ؟ فإن طالبناه بالبينة كان عبثاً لأن ظهور الكرامات عليه يدل على أنه لا يكذب ومع قيام الدليل القاطع كيف يطلب الدليل الظنى، وإن لم نطالبه بها فقد تركنا قوله صلى الله عليه وسلم : «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر» فهذا يدل على أن القول بالكرامة باطل.

والرد على البند الثالث فيه الكفاية للرد أيضا على هذا البند.

٥ - إذا جاز ظهور الكرامة على بعض الأولياء جاز ظهورها على الباقين، فإذا كثرت الكرامات حتى خرقت العادة جرت وفقاً للعادة وذلك يقدر في المعجزة والكرامة.

والرد على ذلك : أن المطيعين فيهم قلة، كما قال تعالى : ﴿وقليل من عبادى الشكور﴾، وكما قال إبليس : ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ وإذا حصلت القلة فيهم لم يكن ما يظهر عليهم

من الكرامات في الأوقات النادرة قادحًا في كونها على خلاف العادة.

سبعة أولياء في مصر لهم الكرامة :

قيل : إن في مصر سبعة أولياء لهم التصرف ومنهم السيدة نفيسة رضي الله عنها، والسيد البدوي، وإمامنا الشافعي، وقد أكرمهم الله تعالى وأظهر خارق العادات لمن يتوسل بواحد منهم في أى شيء من الأشياء التي تكون كرامة للولي، وفي اعتقادي أنه ليس هذا التوسل ممنوعاً أصلاً لأن التوسل بالولي إنما يطلب من الله إجابة طلبه إكراماً لهذا الولي، لاعتقاده أن هذا الولي أقرب منه إلى الله تعالى، وهذا لا فرق فيه بين الحي والميت لأن الفاعل هو الله تعالى، بل إنه بعد الموت أقرب منه حال الحياة الدنيوية لأن الروح بعد الممات غير مشغولة بتدبير شئون البدن.

ولكن ما هي الوسيلة؟

الوسيلة جاءت في سورة المائدة في قوله سبحانه وتعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، والوسيلة والوصيلة لفظان معناهما واحد، أى ما يتوصل به إلى المقصود.

ومعنى قوله تعالى : ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ اطلبوا ما يوصلكم

إليه، فمعنى الآية: اتقوا الله واطلبوا ما يوصلكم إليه، وتقديم «إليه» في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ لإفادة الحصر، أى اطلبوا ما يوصل إليه وحده لا إلى غيره.

وما الذى يوصل المؤمن إلى ربه؟

أول ما يوصل المؤمن إلى ربه إيمانه الصادق وعمله الصالح، كذلك من الوسائل التى توصل الإنسان إلى ربه دعاء غيره له، فالإنسان إذا عمل أعمالاً أو تخلق بأخلاق، أو أسدى معروفات، وأدى هذا إلى أن تنطلق ألسنة الناس بالدعاء له، فهذا من غير شك وسيلة توصل الإنسان إلى ربه، وهذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.

ولهذا لما استأذن عمر بن الخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن يعتمر وأذن له الرسول في أن يعتمر قال له: «لا تنسنا يا أختى من دعائك».

وفي الحديث «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم يتفجع به، وولد صالح يدعو له»، فهذه تدل على أن دعاء الشخص لغيره وسيلة توصل الإنسان إلى ربه لأنه ليس المراد بالوسيلة إليه الوسيلة إلى ذاته لأنه لا وسيلة إلى ذات الله، وإنما المراد الوسيلة إلى ثوابه وإلى رضاه، والذى يوصل إلى ثواب الله وإلى رضاه عمله وإيمانه أو دعاء غيره له.

بقى التوسل بذات رسول الله أو النبي أو الولي أو الصالح .

فهل هذه أيضا وسيلة ؟

فهل يتوسل إلى رضاء الله وثوابه بأشخاص يرى المتوسل أن

لهم كرامة ومنزلة عند الله، وأن التوسل بهم يوصل ؟

قال بعض العلماء : إنه يصح التوسل بأشخاص الرسل والأنبياء

والأولياء والصالحين، ولكن على معنى أن هؤلاء لهم عند الله

مكانة، وأن الله سبحانه يخصصهم بتكريمه لهم، ومن أنواع تكريمه

هؤلاء الرسل والأنبياء والصالحين أن يثيب من يتوسل بهم لأن هذا

التوسل فيه تقديرهم وتكريمهم والله يكرم ويرضى عن تقدير أوليائه

ورسله، والتوسل هؤلاء الأشخاص عنوان تقدير المتوسل بهم

وتكريمه، والله سبحانه وتعالى يثيب من يكرم المقربين له، ويستدل

على هذا بأن عمر ابن الخطاب كان يأخذ العباس بن عبد المطلب

معه إذا أجدبت الأرض وأرادوا الاستسقاء، وكان يقول : « اللهم

إننا كنا نستسق برسولك ونحن الآن نستسق بعم رسولك » وظاهر

هذه الكلمة أنه توسل بالأشخاص .

وعن ابن عمر قال : ربما تذكرت قول أبي طالب وأنا أنظر إلى

وجه النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال :

وأبيض يستسق الغمام بوجهه كفيل اليتامى عصمة للأرامل

وقد روى النسائي والترمذي وغيرهما أن النبي صلى الله عليه

وسلم علم بعض أصحابه أن يدعو، فيقول: «اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك نبي الرحمة يا محمد يا رسول الله إني أتوسل بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها لي، اللهم فشفعه في».

- وهذا يدل على جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم حياً وميتاً.

وفي الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ فإنه من صلى عليّ مرة واحدة صلى الله عليه بها عشرة، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلّا لعباد من عباد الله وأرجو أن أكون ذلك العبد، فمن سأل لي الوسيلة حلت له شفاعتي يوم القيامة».

ويقول بعض العلماء: إن معنى التوسل بهؤلاء الأشخاص التوسل بجاههم عند الله، وجاههم عند الله ما هو إلّا فضل الله عليهم وإحسانه عليهم فهو توسل بصفات من صفات الله وإن كان ظاهره أنه توسل بالأشخاص.

ونعود فنقول: إنه لا يجب الاعتقاد أن فلاناً بعينه وتّى، وأن الله أظهر الكرامة على يده فلم يقل أحد من العلماء بوجوده على أحد بحيث يكفر جاحده بل يجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أية كرامة كانت من أي شخص كان على التعيين،

ولا يكون بإنكاره هذا مخالفاً لشيء من أصول الدين ولا مانعاً عن سنة صحيحة ولا منحرفاً عن الصراط القويم فإنه لم يجئ في الشرع إلاّ أشهد ألاّ إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، ولم يقل أحد بأنه جاء في الشرع زيادة على ذلك وأن فلانا بعينه ولى الله. لكن من ينكر أن الله أولياء معينين فهذا هو المخالف للقرآن وللإجماع السنة.

بقيت كلمة أخيرة عن زيارة القبور فهي تارة يقصد بها الموعظة بالأموات وهذه تعم جميع القبور والأموات، وتارة يقصد بها الاستمداد والتبرك بالزور، وهذا يختص بالأنبياء، والأولياء الصالحين، ألم يعلموا أن الإنسان يتأثر بتصوراته وأن نفسه تحت قهر سلطان الوهم، فكم من إنسان تحقق أنه سيقتل لا محالة فتصور الموت واقعاً به فمات بسبب ذلك قبل أن يقتل.

كذلك إذا زار الإنسان مشهد الحسين رضى الله عنه واعتقد أنه بمكان ظاهر بين يدي ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم استولى عليه الخشوع والخضوع وامتلاً قلبه إخلاصاً فیدعو الله مخلصاً موقناً بالإجابة خصوصاً إذا اعتقد أن روح الحسين رضى الله عنه تسأل الله تعالى إجابة دعاء زائره، أليس ذلك سبباً في إجابة الدعاء وقضاء حوائج الزائرين المخلصين.

ولا نرى مسلماً ولو عامياً يتوهم فضلاً عن أن يعتقد أن الله شريكاً في خلقه مهما اعتقد الزائر أن المزور أظهر منه روحاً وأصطفى نفساً بما أعطاه الله تعالى من الكمال الإنساني.

الكرامات وروح العصر:

إن الكثير من المثقفين في العصر الحاضر يمجون ذكر الكرامات، هكذا بدون حساب وفي إسراف مسرف، ومما لا شك فيه أن أتباع الولى أينما كان وأينما كانوا يحاولون الإشادة بسذكره فيروون عنه الكرامات الكثيرة فيصادف ذلك قبولاً وارتياحاً عند البعض ونفوراً وإعراضاً عند الآخرين، يجب أن يخضع العقل الإنسان للرسالات الإلهية وهى التى تمدّه وترشده وتهديه، فإذا استجاب لها أمن على نفسه العثار والزلل، وإذا جمع وتأبى عليها وقع فى أغلال الغرائز وانقلب عمله كله إلى استجابات مادية تصبّ الحقائق فى قوالب مادية وتحيل الديانات والعقائد إلى مجموعة من الصور الوثنية. والعقل الإنسان وهذا مكانه من الرسالات الإلهية كثيراً ما يقوده الغرور الأخرق إلى أن يقف منها موقف الحاكم المستبد فيثبت من حقائقها ما يشاء ويمحو منها ما يشاء ويتشكك فيما يشاء، ومن العجيب أنه فى إتيانه ومحوه وشكّه أو تشككه لا يعتمد على منطق واحد، ولكنه التشهى الذى تقوده إليه الغرائز الجامحة فتوقعه فى الخبط والخلط فى الوقت الذى يزعم فيه أنه استوى على عرش المجد الفكرى، ومن هذه الحقائق التى وقف فيها ذلك الموقف فأنكر منها أشياء وارتاب فى أشياء وثبتت منها أشياء المعجزات والكرامات.

ولقد وصل الأمر ببعض المنكرين للكرامات أن أنكروا كل المعجزات الحسية التي ذكرت للرسول صلى الله عليه وسلم في السنة الصحيحة، وفي الأخبار التي محصها رجال الحديث واكتفوا في المعجزات بالقرآن الكريم نافرين كل شيء غيره مما ذكرته كتب الصحاح على اختلاف أنواعها.

إن روح الكثيرين في العصر الحاضر تنادى بإنكار الكرامات وتسخر في وضوح أو إشارات بكل من يروى كرامة وتى. ويقول الأستاذ الدكتور عبد الحلیم محمود في كتابه «أبو الحسن الشاذلى»: «

ومع قيام هذه المشكلة أمامى (مشكلة إنكار الكرامات) في وضوح فإننى لم أتردد قط في أن أبدأ كتابى بكرامة لأبى الحسن الشاذلى وما شككت قط في ثبوتها وما شككت قط في صحة النقل، ثم وجدتني أنقل هذه الكرامات في مناسبة، وتلك في أخرى، ولم أجد في ضميرى عتاباً، ولا في شعورى تراجعاً، ولا في ذوقى نفوراً، لماذا لم أجد حرجاً في نقل بعض الكرامات للأسباب الآتية:

١ - إن القرآن الكريم يحدثنا في أسلوب لا لیس فيه عن المعجزات التي تفضل الله بها على رسله وأنبيائه، ويحدثنا عن الكرامات التي منحها سبحانه وتعالى لأوليائه وأصفيائه، ألم يحدثنا

القرآن الكريم- بصورة لا تحتل التأويل بأن عيسى عليه السلام كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فكيون طيرا بإذن الله، وأنه كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله؟.

لم يحدثنا عن سيدنا موسى بأن ألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون، وبأنه أخرج يده فإذا هي بيضاء للناظرين، وسيدتنا مريم، ألم تحمل بسيدنا عيسى من غير أب، خارقة بذلك قوانين الطبيعة، وكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم أن لك هذا؟ قالت: هو من عند الله.

٢ - ثم إن ما نسميه قوانين الطبيعة، إنما هو في الواقع عادات طبيعية وخرقها ليس بمستحيل عقلا، وخرقها لا يترتب عليه مستحيل، وعادات الطبيعة لا تسيطر على رب الطبيعة.

٣ - ثم إن هؤلاء الذين تجرى على أيديهم المعجزات أو الكرامات لا ينسبونها لأنفسهم، وإنما ينسبونها إلى المتفضل الوهاب، صاحب القدرة والقهر، إنهم ينسبونها إلى من هو على كل شيء قدير.

٤ - والملاحظ في منكرى الكرامات على مر العصور أنهم يتميزون باللوان الغلظة وقساوة القلب، فلا تجد منهم رقة الشعور، ولا صفاء البصيرة، ولا ملائكية الروح، وهم إن لم يكونوا من الملاحدة، فهم من الصنف الذي لم يخالط الإيمان شغاف قلبه، وإنما

بقى صورة عائمة على السطح.

٥ - وجمهرة المسلمين على ممر العصور عامتهم وخاصتهم وقمهم الشوامخ في العلم والدين من الذين يثبتون الكرامات ويؤمنون بها.

ويضرب الدكتور عبد الحلیم محمود مثلاً خاصاً به يضيفه إلى الأسباب العامة التي ذكرناها، والتي تجعله يؤمن بالكرامات فيقول :
« في فترة من الفترات ابتلاني الله بموضوع شق على نفسي وعلى نفس المحيطين بي، واستمر الابتلاء مدة كنا نلجأ فيها إلى الله طالين الفرج.

وذات يوم أتى عندي بعض الصالحين، وكان على علم بهذا الابتلاء، وأعطاني ورقة كتبت فيها صيغة من صيغ الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اقرأها واستغرق فيها، وكررها منفرداً في الليل، لعل الله يجعلها سبباً في تفريج هذا البلاء.

واعتكفت في غرفة بعد صلاة العشاء، وأضأت نور الغرفة وأمسكت الورقة بيدي وأخذت في تكرار الصيغة، واستغرقت فيها، وإذا بي أرى فجأة أن الحروف التي كتبت بها الصيغة مضيئة تتلألأ نوراً، ومع أن الغرفة كانت مضيئة، فإن الحروف كانت تتلألأ نوراً في وسط النور، ولم أصدق عيني فغمضتها وفتحتها عدة مرات،

فكان النور على ما هو، فوضعت الورقة أمامي، ووضعت يدي على عيني أدلكهما وأدعكهما، ثم فتحت عيني، فإذا الحروف على ما هي عليه تتلألاً نوراً وتشع سناءً - فحمدت الله وعلمت أن أبواب الرحمة قد فتحت وأن هذا النور رمز لذلك، وفعلاً أزال الله الكرب وحقق الفرج بكرامة هذه الصيغة المباركة.

وأمر آخر من خوارق العادات شاهدته بنفسى :

في ذات صبح كنت جالسا في المنزل في غرفة المكتب كعادتي، وكنت في تلك اللحظة مطأطئ الرأس، ثم رفعت رأسي ناظرا أمامي، وإذا بـ أجد أمامي إنساناً فأخذت في تأمله دون أن أشعر قط بخوف أو فزع، كان طويلا أقرب إلى النحافة منه إلى السمنة، يميل لونه إلى السمرة وعلى رأسه شال أبيض، وكان في وقفته منحنيا قليلا، وقد تأملنا ملابسه أيضا في تفاصيلها وشكلها، لم يتحدث معي ولم أتحدث إليه، وبعد فترة ونحن على هذا الوضع أنظر إليه في تحديق ويمد عينيه إلى في نظرات ثابتة أخذ يشف شيئا فشيئا وألاحظ أنا في وضوح التدرج في هذه الشفافية، وانتهت الشفافية بزواله تماما دون أن يتحرك من موضعه.

ويقول الدكتور عبد الحلیم محمود في ختام كلامه : هذا

ما شاهدته بنفسى.

ثم يذكر أيضا في مقدمة كتابه عن «أبو الحسن الشاذلي»: «لقد اضطررت إلى كتابته (يقصد كتاب أبي الحسن الشاذلي) اضطرارا، لقد حملت على تأليفه حملا، وما كان لي في تحديد زمن كتابته من إرادة حرة، أو اختيار يبيع لي التأجيل الطويل، وسأذكر قصة تأليفه سواء أسخر الناس منها أم لم يسخروا، وسواء أصدقوها أم أنكروها، إنني أروى هنا ما وقع لي شخصا أرويه كما حدث دون زيادة أو نقص، وما من شك في أن مثله بلي وأغرب منه يحدث كل يوم، ومع ذلك فإن المنكرين والشاكين والساخرين لا يزيدهم ذلك إلا شكًا وإنكارًا واستمرارًا في السخرية..».

ثم يتكلم الدكتور عبد الحليم في ما صادفه في التحضير لهذا الكتاب، وطلبه المراجع من أصدقائه كما وجد في دار العشيرة المحمدية بعض المراجع، ومنها كتاب (درة الأسرار) ثم سافر الدكتور إلى عدة أقطار، واستكمل المراجع ثم يقول: «ثم صرفتني الصوارف، وطويت صحف أبي الحسن، وشغلت بأمور أخرى، ومضت الأيام والسنون وصحف أبي الحسن مطوية، حتى إذا كانت سنة ١٩٦٢ دعيت إلى تونس أستاذًا زائرًا لمدة شهر بجامعة الزيتونة فتجددت عندي الذكريات عن أبي الحسن، وأخذت أتسم عبيره في تونس، لقد صعدت إلى الجبل الذي كان يتعبد به، ودخلت المغارة التي كان يعتكف بها، ونزلت إلى نهاية المغارة، وجلست خاشعا

متعبدا حيث كان يتعبد أبو الحسن وحيث كان يقضى الساعات الطوال ليلا ونهارا، وحيث كان يخلو فريدا بربه متضرعا، يغلبه الشوق، وتغمره المحبة، ويعمر قلبه اليقين، وشعرت في المغارة بطمأنينة النفس، وبالسكينة تملؤني، وتتجمع خواطري بصورة عجيبة وبالتركز الذهني الذي ينذر ويعز وجوده».

ثم يقول الدكتور عبد الحلیم :

« وكنت في ليبيا أستاذا زائرا للجامعة الإسلامية هناك، وكنت قد انتهيت من إلقاء المحاضرات في البيضاء وبنى غازي وطرابلس، وكنت قد اتخذت الإجراءات للسفر حاجا إلى بيت الله الحرام، وبينما أنا في طرابلس أنتظر أن أبحر منها إلى الأراضي المقدسة إذ بى أرى، فيما يراه النائم، شخصا أعرفه، اسمه «توفيق» أراه في ملابس غير ملابسه العادية، أراه يلبس ملابس شرطي، ويمسك بيده قيدا ويقول لي أمرا : (اكتب عن أبي الحسن الشاذلي) وتلكأت في الإجابة، وأردت أن أهمل الموضوع وأن أتحدث معه في شيء آخر، فإذا به يهدد بوضع القيد في يدي، وإذا به ينذر ويتوعد فقلت له :

هل معنى ذلك أن أترك ما بيدي من أعمال لأكتب عن أبي الحسن الشاذلي؟

فقال : نعم، اترك ما بيدك من أعمال واكتب عن أبي الحسن.

ورضى (توفيق) حينما وعدت بالكتابة.. واستيقظت».

ويقول الدكتور عبد الحلیم محمود:

ثم فكرت في كتابة كتاب عن الإيمان وأخذت المراجع وقت
برحلة مع بعض الأصدقاء، ثم نزلنا من السيارة (سيارة أجرة) أمام
القرية، وعادت السيارة من حيث أتت، عادت وبدخلها المراجع
وتذكرت: (اترك ما بيدك واكتب عن الشاذلي) وقلت في نفسي
لنكتف بهذه الدروس ولنبدأ.

هذه قصة الدكتور عبد الحلیم محمود مع أبي الحسن سجلها في
كتابه بدون زيادة أو نقص، ولك أن تستخرج منها ما تشاء، وإنما
أقول: إنها كرامة الصوفي المجاهد العارف بالله أبي الحسن الشاذلي.

كرامات السيدة نفيسة

في حديث للسيدة نفيسة عن الكرامات قالت:

«شأن بين خدع المخادعين وتضليل المضللين من الناس وبين
كرامات الأولياء الصادقين، أولئك الذين يخصصهم الله بتلك
الكرامات لتكون برهاناً على صدقهم وتكريماً لهم من الله، ونورا
يستضيء به من شاء أن ينسج على منوالهم ليصل إلى ما وصلوا
إليه أو بعضه، فباب الرحمة مفتوح دائماً لعباد الله - وطريق الطاعة

للقربى منه ميسر لكل من قهر نفسه وشيطانه وهما العدوان اللدودان اللذان إذا قهرهما عبد نجح وسار في الطريق المستقيم متنقلا من نور إلى نور ومن مرتبة إلى أخرى حتى يلقى الله وهو راض عنه فتنعم بروحه، ويشع من نعيمها بعض الكرامات لتهدى إلى سواء السبيل، وليس عزيزا على الله أن يكرم أولياءه في دنياهم وفي رزقهم جزاء ما اتقوا وجاهدوا وصبروا، وقد تتجلى الكرامات في أرواحهم الطاهرة في البرزخ أكثر مما تجلت في حياتهم الدنيا حتى يكون للكرامة أثر أبلغ فيمن يلمسها، أو يراها، أو يسمع عنها، فيشرح صدره، وينكب على طاعة ربه، وقد تكون تلك الكرامات بالإلهام أو في رؤيا منامية، وإذا كان الولى في الدرجات العليا استطاعت روحه البرزخية أن تنطق وتهدى إلى ما يجيل إلى الناس أنها انتقلت من باب الكرامات إلى باب المعجزات، وإن ذلك على الله يسير، ولا يجحد كرامات الأولياء إلا من طبع الله على قلوبهم، وأعمى أفئدتهم، فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، أما فيما يتعلق بما سماه الناس بكرامات لى فهذه ليست إلا من قبيل النوع الذى يقود إلى الطاعة، والسير فيما يرضى الله حتى يصل من شاء الله له الهداية إلى منازل الصالحين».

وللسيدة نفيسة كرامات كثيرة في حياتها وبعد وفاتها متصلة متتالية مترادفة متوالية، وقد ذكر الإمام ابن حجر رضى الله عنه نحو من مائة وخمسين كرامة ذكرها لا على سبيل الحصر، بل على

سبيل المثال، وأنا لنذكر بعض كراماتها في حياتها وبعد مماتها
لنكشف قسماً من ساطع نورها، ولحمة من لحات ربها، وفيوضه
عليها، وهي السيدة كريمة الدارين سليلة أهل البيت ومن كراماتها :

١ - قال عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام الشام وفقهها
وعالمها، المتوفى في سنة ١٥٨ : قلت لجوهرة، إحدى إماء الحسين :
هل رأيت من سيدتك الصغيرة نفيسة كرامة؟ قالت : (نعم كنت
في يوم شديد القيظ وإذا بتنين (ثعبان) قد جاءني وكان معي ماء
لسيدتي نفيسة، فصار ذلك التنين يمرغ خدّه على الإبريق كأنه
يتمسح به، تبركا بمائها، ثم ذهب من حيث أتى).

٢ - عن سعيد بن الحسن، قال : توقف النيل بمصر في زمن
السيدة نفيسة رضي الله عنها فجاء الناس إليها وسألوها الدعاء
فأعطتهم قناعها فجاءوا به إلى النهر وطرحوه فيه فما رجعوا حتى
زخر النيل بمائه وزاد زيادة عظيمة.

٣ - ازدحمت الخيل على أمها، وكانت تحملها، وهي طفلة
رضيع لم تتجاوز نصف حول، فأشارت وهي في حضن أمها بيدها
الكريمة برد الخيل فردّها الله عزّ شأنه ببركتها إعلاماً بما يكون لتلك
الطفلة في مستقبل أيامها من علو شأن ورفعة قدر.

٤ - كان لامرأة عجوز أربع بنات يتقوتن من غزلهن من
الجمعة إلى الجمعة، وفي آخر الجمعة تأخذ أمهن العجوز غزلهن

وتمضى به إلى السوق فتبيعه وتشتري بنصف ثمنه كتأنا يغزلنه وينصفه الآخر ما يموتن طول الأسبوع، فأخذت العجوز يوماً ما غزلته على عادتها ولفته في خرقة حمراء ومضت به إلى السوق لبيعه فيينا هي سائرة في طريقها والغزل على رأسها، إذا انقض طائر على رزمة الغزل بمخرقتها الحمراء، واحتفظها وارتفع فوقعت المرأة مغشيا عليها، فلما أفاقت أذرت دموعها، وأسالت عينيها، واسترسلت في بكائها، ثم أخذت تقول: (كيف أصنع باليتيات، وقد أجهدهن الجوع، وآلمهن السغب) فاجتمع القوم عليها، وسألوها عن شأنها وعما أبكاهن، فأخبرتهم بقصتها، فدلوهن على أن تذهب إلى السيدة نفيسة رضى الله عنها تبثها بثها وحزنها، وتذكر لها أمرها فينفس الله ما بها ويزيل غمها.

فذهبت إليها لوقتها فأخبرتها بقصتها وما جرى لها وما أصاب بناتها من جوع وسألته الدعاء فأشفقت عليها السيدة نفيسة ورثت لها ولبناتها ثم رفعت السيدة نفيسة بصرها إلى السماء قالت: (يا من علا فقدر وملك فقهر، اجبر من أمتك هذا ما انكسر، فإنها وبناتها من خلقك وعيالك، يا أرحم الراحمين).

ثم قالت للعجوز: اتعدى، فإن الله بعباده رحيم، وهو على كل شيء قدير، فجلست المرأة بالقرب من الباب، وفي قلبها من جوع بناتها التهاب، فلم تمض ساعة حتى أقبل جماعة يطرقون باب

السيدة نفيسة وستأذنون في الدخول فأذنت لهم، فدخلوا وسلموا عليها وهي من وراء حجاب.

فسألتهن عما أقدمهمن وعن أمرهم، فقالوا: (إن لنا لأمرًا عجبًا نحن قوم تجار ولنا مدة ونحن سائرون في البحر في سلامة وأمان فلما وصلنا إلى قرب بلدكم انشغرت في مركبنا ثغرة وفتحت فيها فتحة فدخل فيها الماء وأشرفنا على الغرق فجعلنا نسد تلك الثغرة فلم تنسد فاستغثنا بالله تعالى وضرعنا إليه وتوسلنا بك إليه، فإذا بطائر ألقى إلينا خرقة فيها غزل من الكتان فوضعناها في تلك الفتحة فانسدت بإذن الله تعالى وبركتك، وقد جئنا إليك بمجمائة درهم فضة شكرًا لله تعالى على نجاتنا وسلامة مركبنا) وعند ذلك بكت السيدة نفيسة رضى الله عنها ورفعت بصرها إلى السماء وقالت: (إلهي ما أرافقك بمخلقك والطفك بعبادك فلك الحمد الجميل والشكر الجزيل).

ثم نادى العجوز فأقبلت مسرعة فقالت لها سيدة الدارين: (بكم تبيعين غزلك، كل جمعة)؟.

فقالت: بعشرين درهما.

فقالت: أبشرى فإن الله تعالى عرضك عن كل درهم خمسا

وعشرين درهما.

ثم قصت عليها قصة ذلك التاجر ودفعت إليها ذلك المبلغ،

فأخذته وهي تضرع إلى ربها بمحمدتها وثنائها، وتشكر للسيدة ببركتها ونفحتها ورجعت إلى بناتها وقد استطارها الفرح فأخبرتهن بما جرى وكيف أن الله تعالى رد لهفتها ببركة السيدة نفيسة رضي الله عنها.

٥ - تزوج رجل من أهل المغافر، بامرأة ذمية من أقباط مصر فجاء منها بولد فأسر في بلاد العدو فجعلت المرأة تذهب إلى الكنائس والأديار تسأل عن الأسارى وولدها لم يفك أسره ولم يجىء مع من كان يأتى من الأسارى.

فقال لزوجها: (بلغنى أن من بين أظهرنا سيدة شريفة من أسرة نبيكم يقال لها السيدة نفيسة بنت الحسن ولها كرامات ونفحات فاذهب إليها لعلها تدعو لولدى فإن جاء آمنت بدينها) فجاء الرجل إلى السيدة نفيسة رضي الله عنها وقص عليها القصة فضرعت إلى ربها أن يرد عليه ولده ويخلصه من أسره.

فلما كان الليل إذا بالباب يطرق فخرجت المرأة، فإذا بها تجد الطارق ولدها وهو واقف بالباب فصاحت من فرحتها، واحتضنت ولدها ودموع الفرح تسيل على وجتها، ثم قالت: (يا بنى أخبرنى بأمرك كيف كان).

فقال: يا أماه كنت واقفاً بالباب في الوقت المعين، وهو الوقت الذى دعت فيه السيدة نفيسة، وأنا في خدمتى فلم أشعر إلا وبد وقعت على القيد وسمعت من يقول: (أطلقوه، فقد شفعت فيه

السيدة نفيسة بنت الحسن) فأطلقت من الغل والقيد، ثم لم أشعر
بنفسى إلا وأنا أدخل من رأس محلتنا إلى أن وقفت على الباب
وطرقتة.

ففرحت به أمه وأبوه وشاعت هذه الكرامة فأسلم في تلك الليلة
أهل سبعين دارا ببركتها وأسلمت المرأة ووهبت نفسها لخدمة السيدة
نفيسة رضى الله عنها.

٦ - وكان أحد أمراء عصرها يغلب على أحواله الظلم وقد
طلب إنسانا ليعذبه، فلما قبض على الرجل أعوان الأمير، فبينما هو
سائر معهم إذ مر بدار كريمة الدارين فصالح مستجيرا بها،
فما سمعت استجارته حتى دعت له بالخلاص.

وقالت له: (حجب الله عنك أبصار الظالمين).

فضى به الأعوان حتى أوقفوه بين يدي الأمير.

فقال الأمير لأعوانه: (أين الرجل الذى أمرتكم بإحضاره).

فقالوا: (أيها الأمير، إنه واقف بين يديك).

فقال الأمير: (والله ما أراه).

فقالوا: (أيها الأمير، إنه مر بالسيدة نفيسة بنت الحسن

ابن زيد رضى الله عنهم، فاستجار بها وسألها الدعاء، فدعت له

بجلاصه، وقالت: حجب الله عنك أبصار الظالمين).

فقال: «أو بلغ من ظلمي هذا يارب، إني تائب إليك وأستغفرك». فلما تاب وقد نصح في توبته وأخلص في نيته إذا به يرى الرجل وهو واقف بين يديه. فدعاه إلى الاقتراب منه، وقام الأمير من مجلسه وأخذ برأس الرجل فقبله واعتذر إليه وصرفه من عنده شاكرا، ثم جمع ماله وتصدق ببعضه على الفقراء والمساكين وذهب إلى السيدة نفيسة رضي الله عنها ومعه مائة ألف درهم وقال: «خذى هذا المال شكرا لله تعالى بتوبتى»، فأخذته وأخذت تصره في صرر بين يديها، ثم أمرت به ففرقتة عن آخره، ولم تبق منه شيئا شأنها في كل مال يوهب لها، وكان حاضرا عند ذلك بعض من يخدمها من النساء فقالت لها: «يا سيدق. لو أبقيت لنا شيئا من هذه الدراهم لنشترى بها شيئا نفطر عليه»، فقالت

لها «خذى غزلا غزلته بيدي فيبيعه بشيء تشتري منه ما نفطر عليه»، فذهبت المرأة وباعت الغزل وجاءت لها بما فطرت به هى وإياها، ولم تأخذ من المال شيئا.

٧ - وقال القضاعى رحمه الله تعالى: قلت لزئنب بنت يحيى

أخى السيدة نفيسة رضي الله عنهم: «ما كان قوت عمك؟».

قالت: «كانت تأكل في كل ثلاثة أيام أكلة، وكانت لها سلّة معلقة أمام مصلاها، وكانت كلما طلبت شيئا للأكل وجدته في تلك السلّة، وكانت لا تأخذ شيئا من غير زوجها أو ما يحبها به ربه»

فلحمد لله الذى جعل لنا نصيباً مما جعل للسيدة مريم بنت عمران عليها السلام، فإن الله تعالى قال فى كتابه المبين حاكياً عنها: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

وقد جعل الله للسيدة نفيسة رضى الله عنها، ما جعل للسيدة مريم عليها السلام ويقول الأستاذ أحمد فهمى فى ذلك:

وحبا الإله نفيسة بكرامة خصت بها من قبل ذلك مريم
فيض من الله الغنى ونفحة فبارك الله الكريم المنعم
والله يرزق من يشاء بفضله والله يرفع من يحب ويكرم

٨ - وكان الإمام الشافعى رضى الله عنه إذا مرض يرسل إليها رسولا من قبله - كالربيع الجيزى أو الربيع المرادى - أو غيرهما من أصحابه فيقرئها سلامه ويقول لها: إن ابن عمك الشافعى مريض وسألك الدعاء فتدعوه له فلا يرجع إليه رسوله إلا وقد عوفى من مرضه.

فلما مرض مرضه الأخير أرسل على عادته رسوله يلتمس منها الدعاء، فقالت لرسوله: «متعته الله بالنظر إلى وجهه الكريم». فجاء الرسول إليه، فسأله عما أجابت به فقال له ما سمعته منها، فعلم أنه ميت.

ويقول بعض الصالحين ممن حضر جنازة الإمام الشافعي رضى الله عنه : « سمعت بعد انقضاء الصلاتين صوتاً ولا أرى شخصاً يقول : إن الله تعالى غفر لكل من صلى على الشافعي بالشافعي ، وغفر للشافعي بصلاة السيدة نفيسة عليه » .

٩ - وقد ذكرنا سابقاً قصة الفتاة المقعدة التي جرى ماء وضوء السيدة الصالحة نفيسة رضى الله عنها على قدمها فشفيت .

١٠ - وكان الناس يهرعون إلى السيدة كريمة الدارين في كل مَسَدٍ ويسألونها الدعاء فلا يلبثون حتى يجبر الله كسرهم ويقضى حاجتهم ويفرج كربهم ويكشف عنهم همومهم ، فكانوا يزدحمون عندها .

- فقال زوجها إسحاق المؤمن يوماً لها : « ارحلى بنا إلى الحجاز » .

- فقالت : « لا أستطيع ذلك لأن رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وقال لها : لا ترحلى من مصر فإن الله تبارك وتعالى متوفيك فيها » .

كراماتها بعد وفاتها :

ما من زائر لقبر كريمة الدارين إلا حفت به بركاتها وشملتته نفحاتها فكم من مهموم زارها وضرع إلى الله تعالى فانحسرت غمومه

وانقشعت همومه، وكم من خائف مذعور من جور إلى حيف أو ظلم إلا وقد لقي الإنصاف وباعد الله عنه الظلم وأزال عنه العسف فسكن قلبه وعاد بعد زيارتها وهو وادع الحال ساكن البال مطمئن الفؤاد فقامها من الأماكن المعروفة باستجابة الدعاء.

وكراماتها بعد وفاتها كثيرة وهي آية على إكرام الله تعالى إياها وعلى ما خصّ الله به آل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم من كرامات وأسبغ عليهم من نفحات وفيوضات.

١ - قال أبو موسى رحمه الله تعالى: «دخلت إلى ضريحها فوضعت يدي على الضريح فسمعت قائلاً: «أهكذا تدخل على أهل بيت النبوة».

٢ - وقال بعض المؤرخين: «كان بمصر رجل يقال له عفان ابن سليمان المصرى فوجد بداره كنزا دفيناً. فأخذ يتصدق من هذا المال على الفقراء والمساكين والأيتام واليتامى والمحتاجين فأمعن في صدقاته حتى كان لا ينام ليلة حتى يطعم خمسمائة بيت من أهل مصر، وكان يتلقى الحجاج كل عام من أرض التيه، وكان يحمل المنقطعين منه، ويكشف حاجتهم وينفس كربهم، وفي بعض الأيام اشترى من الأمير أحمد بن كيغلف ألف حمل من البر، وبعد أيام قلائل وقع غلاء بمصر فزاد ثمن البر عن سعره بثلاثة أمثال فبعث إليه وأحضره بين يديه فقال له ابن كيغلف: خذ ثمن البر الذى

اشترته منى واردد البر أو ادفع ثمنه بالسعر الحاضر فقال له عفان : لا أفعل ذلك، ثم خرج عفان من عند الأمير غضبان أسفاً وذهب إلى داره وجلس على الباب فجاء إليه القوم وقالوا له : انظر ما وقع فى الناس من جذب وغلاء ومهما طلبت فى البر الذى عندك من ثمن فإننا على استعداد لدفعه عن طيب خاطر. فقال لهم : لا والله تعالى فىنا إنما أدخر الثمن عند الله عز وجل، وإن قد تصدقت به على الفقراء والمساكين والأيامى والأرامل، ثم قام من وقته وفرقه جميعه ولم يبق منه إلا ما يسد حاجته وحاجة أهله، فبلغ ذلك تكين بن عبد الله الحربى الأمير أبا منصور المعتضدى الخزرى أمير مصر، وكان جباراً مهيباً، وقد شكاه أهل مصر إلى العارف بالله تعالى بنان بن أحمد الواسطى الواعظ، فدخل عليه ووعظه وقال له : ارجع عن أهل مصر - فلم يرجع - ولم يسمع.

وأمر بإخراج بنان إلى بلاد المغرب فشكاه أهل مصر إلى العارف بالله تعالى الشيخ أبى الحسن الدينورى، فدخل عليه وعظمه ووعظه فلم يرجع وأمر بإخراجه من مصر إلى بيت المقدس.

وقد أمر تكين بأخذ أموال عفان، فذهب إلى السيد الشريف على ابن عبد الله، وقال له : « يا سيدى إنى أريد أن أخرج من مصر إلى غيرها من بلاد الله تعالى فراراً من الظلم ومن بغى الجبار تكين»، فقال له الشريف على : « قم بنا إلى ضريح السيدة نفيسة

رضى الله عنها ندعو الله عنده أن يشغل هذا الجبار عنك»، فجاء عفان من جانب - والشريف من جانب آخر - قرءا ما تيسر من القرآن وسألا الله عز وجل أن يجعل ذلك واصلا إلى السيدة نفيسة رضى الله عنها وأن يفرج عن عفان ما هو فيه من ضيق وكرب فأخذتها سنة من النوم فرأى الشريف على السيدة نفيسة رضى الله عنها وهي تقول له: «خذ عفان معك واذهب إلى تكين فقد قضيت حاجته» فلما استيقظ الشريف حدثه بما رآه في نومه وأخذ بيده وتوجهها إلى تكين فدخل عليه فقام تكين إلى الشريف وهو يرعد، وكأنا قد حم لوقته وقال: «إني رأيت السيدة نفيسة رضى الله عنها وهي تقول: أكرم الشريف عليا وارجع عن عفان واردد عليه ماله فإنه قد استجار بنا» فقال الشريف: هذا عفان بين يديك، فقال تكين: «والله ما رأيتك، يارب إني تائب إليك، فاقبل توبتي واغفر حوبتي» فتاب تكين من الظلم توبة نصوحا وأخلص نيته فرآه في الحال فأكرمهما، وردَّ إلى عفان ماله، وقال لعفان: «أنت عتيق السيدة نفيسة رضى الله عنها»، ثم أمر تكين بمال كثير تصدق به على الفقراء والمساكين وصار يحسن إلى أهل مصر ويعدل بينهم، وكان يقول: «كل أهل مصر يخافونى وأنا أخاف من دعوة عفان عند ضريح السيدة نفيسة رضى الله عنها».

وقد أحسن تكين من شأنه وحكمه في أهل مصر، ولازم زيارة مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها، وكان يتصدق عنده بالمال

الكثير، وينفع خدمه بمنحات وأعطيات إلى أن توفي في ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وقد أوصى بأن يدفن في بيت المقدس، فحمل في تابوت إلى بيت المقدس فدفن فيه.

أما السيد الشريف الذي تشفع لعفان بكرامة السيدة نفيسة فهو علي بن عبد الله بن القاسم بن محمد بن جعفر الصادق رضي الله عنهم، وكان من أهل الصلاح والتقوى والدين والعبادة - وله مشهد جليل - بناه الظاهر الخليفة الفاطمي وكان يحمل إليه النذور.

وكان الفاطميون يأتون إلى هذه المشاهد ويتصدقون عندها بالأموال.

قال أبو عمر الكندي: وكانوا يجعلون عليها الستور، ومات علي ابن القاسم هذا سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، وحين تشفع لعفان بعث إليه عفان في الليل مائة دينار فردّها وقال للذي جاء بها له: «قل له إن الله تعالى يقول: ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾ فكيف أبيع نصيبي بمائة دينار» .

٣ - وحكى عن أبي العز اليماني أنه قال: «كنت عزيزا في قومي أثرا في عشيرتي من أكثرهم مالا وضياعا فاستطلت بنفسى وشمخت بأنفي وتكبرت على الناس واحتقرت أمرهم فلم ألبث حتى ذهب مالي وضاعت ضياعي فضاقت بي الأرض بمارجبت واشتدّ بي

الحال وصرت كاسف البال، فشمتم بى العدو ورثى لى الصديق، فشكوت أمرى إلى أحد أصدقائى فأشار علىّ بزيارة الصالحين والدعاء عندهم عسى الله تعالى أن يأتى بفرجه القريب، فيذهب عنى ما نزل بى، فاعتزلت الناس، فرأيت فى نومى كأنى فى فضاء واسع فيه نور ساطع يظهر آونة ويختفى أخرى، فأخذنى العجب من ذلك، فإذا بقائل يقول: (هذا نور السيدة نفيسة بنت الحسن رضى الله عنها) فقلت: عسى الله أن يجمع بينى وبينها فأسألها الدعاء بأن يكشف الله كربتى ويفرج غمى، فقيل لى: إنها قد توفيت، فقلت: (أغتم بركة زيارتها) فسمعت من يقول: (أنا نفيسة يا أبا العز فقارق نفسك، وانزع عنها سوءها) فقلت: فارقتها فرقة لا عودة لى إليها، وإنى تبت إلى الله عز وجل مما فرط منى، فقالت: أبشر، فقد قبلت التوبة، وزالت الحوبة، فأصبحت فرحاً بما رأيت، وما لبثت أن زالت غمى، وانفرجت كربتى، وحسن حالى، واستروح بالى، وصرت فى حالة أحسن من حالى السابقة، وأفاض الله علىّ من نعمائه، وأسبغ علىّ من آلائه أضعاف ما كنت فيه ببركة سيدة الدارين.

٤ - قال ابن إياس: كان لمحى الدين بن مثرى البزدار ابنة صغيرة لها من العمر نحو سبع سنين، وكان يسكن بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها، وكان على رأس الابنة كوفية من ذهب، فوقفت تلعب مع الصغار، وكان لهم جار صبي أمرد يعمل

في صنعة القمريات، فلعبت عينه على الكوفية الذهب التي على رأس البنت، فلعب بعقلها وقال لها: إن والدتك في السيدة نفيسة، وأرسلت تطلبك هناك، ففضت معه وأخذ معه عبدًا أسود، فلما توجهوا بتلك البنت إلى مكان خرب مهجور خلف مزار السيدة نفيسة ألقيا بالبنت فذبجاها هناك، وحملها وألقياها في فسقية موق هناك وأخذوا الكوفية التي على رأسها، وتركها تتخبط في دماها، فأقامت هناك يوما وليلة، فكثرت التفتيش عليها من أمها وأبيها، فنزل أبوها إلى السوق، وأوصى التجار بمراقبة الكوفية الذهبية التي كانت على رأس ابنته، فإذا رأوها أتوه بها، فبينما هو في الصاغة وإذا هو بالصبي الأمرد الذي أخذ الكوفية وذبح البنت، يعرض الكوفية ويشهرها للبيع ويساعها بسعر رخيص، وقبض عليه، وأحضروا أبا البنت وتوجهوا إلى باب الأمير كمثينا، فلما عرضوه على السوالي ضربه فأقر بأنه أخذ الكوفية من فوق رأس البنت، وأنه ذبجها ورماها في فسقية موق خلف مزار السيدة نفيسة، فقالوا له: امض معنا وأرنا ذلك المكان الذي رميتها فيه فخرج معهم وهو في الحديد، وأتى بهم إلى تلك الفسقية التي رماها بها، فنزل أبو البنت إليها فوجدها راقدة وهي مذبوحة وفيها بعض روح ولم ينقطع وريدها من الذبح، فحملها وطلع بها من تلك الفسقية، فلما بلغ الأمير ذلك أرسل فأحضر الجميع بين يديه وقصوا عليه قصة الصبي وما جرى له مع البنت فحزن الأمير، وقال لها: من فعل بك هذا؟

فأشارت إلى الصبي والعبد الأسود الذى على باب البيت الذى تسكن فيه هى ووالدها، وأحضروا للبنت من ضمدها لها جرحها الذى برقبته وعاشت بعد ذلك وبرت من الجرح.

وقد ذكر أن البنت ذكرت: (أنه بعد أن ألقيا بها فى الفسقية دخلت على امرأة وعلى وجهها قناع، وقالت: لا تخافى إني أنا السيدة نفيسة وغدا تحلصين من هذا المكان).

ثم مسحت الدم من رقبتي فانقطع فى الحال، وسكن روعى مما كنت فيه.

وقد انتشر حديث تلك الواقعة واشتهر أمرها فى القاهرة.

٥ - قال الإمام الشعراني رحمه الله تعالى: «دخلت أنا لقبر السيدة نفيسة مرة فوقفت على باب مشهدها الأول أدباً، ودخل أصحابى إلى قبرها، فلما عثت وجاءتني وعلى رأسها مئزر صوف أبيض، وقالت لى: «أنا نفيسة فإذا جئت للزيارة فادخل إلى قبرى فقد أذنت لك»، فمن ذلك اليوم، وأنا أدخل لزيارتها وأجلس تجاه وجهها.

ويقول الإمام الشعراني أيضاً:

رأيت فى كلام الشيخ أبى المواهب الشاذلى أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا محمد إذا كان لك إلى الله تعالى حاجة فأنذر لنفيسة الطاهرة ولو بدرهم يقض الله تعالى حاجتك».

٦ - وعن الشيخ محمد علي خلف الحسيني، أن جارا له كف بصره وعانى ما عانى وصرف الكثير في سبيل الشفاء فعبجزت عنه نطس الأطباء، فذهب يوما لزيارة المشهد النفيسي وأخذته سنة من النوم، فرأى كأن السيدة نفيسة قد دخلت عليه ووضعت شيئا في عينيه فقام من نومه وقد رجع إليه نور عينيه وزاد ضياؤها وأصبح بصيرا فكان يداوم على زيارتها.

الإمام الشافعي بمصر:

يقول الأستاذ الكبير عبد الحلیم الجندی فی كتابه عن الإمام الشافعی إن الشافعی كان بمكة سنة ١٩٤ عندما ثار أهل تنووقمی (زمام الجيزة وميت غمر الآن) على الوالی حاتم بن هرثمة، وبعث إليه الأمين جندا بين قوادهم السرى بن الحكم وعبد العزيز ابن الجروى فهزموا الثوار، وفي سنة ١٩٥ ولى مصر جابر ابن الأشعث الطائى، فلما خلع الأمين أخاه المأمون شغب عليه الأمراء والولاءة واقتصر السرى بن الحكم الفرصة لبيحث لنفسه عن مكان فظهر أمره وظل منذ قدوم الشافعی حتى وفاته مركز الأحداث بمصر، ولما عين المأمون واليا جديدا صار (السرى) من قواده، ثم عزل المأمون الوالی سنة ١٩٨، وولى معه محمد ابن موسى فقدم ابنه عبدا لله نائبا عنه سنة ١٩٩، وكان معه محمد ابن إدريس الشافعی، وتشغب الجند على عبد الله فقطع أرزاقهم فأعادوا الوالی

المعزول، ومات العباس بن موسى، مسموماً، وثار (الجرورى) في تينيس وعبأ جنده في مراكب حتى نزل بشطونف فسير إليه الوالى جيشا على رأسه (السرى) فأسر السرى في سنة ١٩٩، ثم أطلق الجرورى سراحه ليحارب معه ضد الوالى فانتصرا. وخرج الوالى في البحر الأحمر إلى مكة سنة ٢٠٠، وولى الجند السرى بن الحكم على مصر، فسار الجرورى إلى الإسكندرية واستولى عليها فبقيت معه الإسكندرية وتينيس فأسمى شبه مستقل بمنطقة تدعى مملكة الساحل، وكان السرى واليا مسيطرا في الداخل شبه مستقل بالبلاد عن بغداد هو الآخر، وفي سنة ٢٠٠ احتل الإسكندرية خمسة عشر ألفا من أهل قرطبة يقال لهم الربضيون طردوا من الأندلس لثورة قاموا بها، فسار إليهم الجرورى في خمسين ألفا. وخالفه السرى إلى حاضرتة (تينيس) فانكفأ (الجرورى) راجعا من الإسكندرية، وفتححت الإسكندرية أبوابها لجند السرى في سنة ٢٠١ وعزله المأمون بوال جديد هزم (السرى) وقبض عليه ونفاه إلى أخميم، وأثر الوالى الجديد بطانته على الخراسانيين فثاروا عليه فهرب وجاء كتاب المأمون لتولية (السرى) فأخرج من الحبس ليعود واليا في الفسطاط سنة ٢٠١، وخطب السرى ودّ المصريين، وكان يقدم الشافعى ولا يؤثر أحدا عليه حتى إذا ثبت أقدامه أدار وجهه لأعدائه فأعمل فيهم القتل والصلب والنفي من البلاد، ولكن إعظامه للشافعى ظل فوق مشاكل الساعة.

وحدثت حروب داخلية وخلافات كثيرة والشافعي لا يتدخل في السياسة وحلقته تضم جوانبها أحيانا على مناقدات الشعراء والفقهاء فلم نسمع أنه تطرق إلى خلافات الحكام أو مسّ ولو بالرأى الحرب التي تدور رحاها قيد خطوات من الجامع العتيق والوالى يكرمه ويعظمه ويستمع إلى موعظته «انظر من يكون صاحبك فإنه يجبك أو يبغضك، وانظر من يكون كاتبك فإنه يعبر عن عقلك الظاهر إلى الناس وعف عن أموال الناس يكثر شكرهم لك وإياك والانبساط إلى رعيتك فتذهب بذلك هيبتك».

ولما هبط الإمام الشافعي أرض مصر ومعه تلميذه أبو بكر الحميدى وسأله بعض الأكابر أن ينزل عنده فقال: أريد أن أنزل عند أخوالى من الأزدي (قبيلة أمه)، فذلك درس في الوفاء تعلمه على النبي صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة فنزل عند أخواله بنى النجار وقصد الشافعي بعد ذلك دار عبد الله بن الحكم وربما توشجت بينه وبين ضيفه الصلات في إبان دراسات عبد الله على مالك وسفيان.

وقد قال له عبد الله: «إذا أردت أن تسكن مصر فليكن لك قوت سنة ومجلس من السلطان تتعزز به».

قال: «يا أبا محمد من لم تعزه الدنيا فلا عز له، وقد ولدت بغزة وربيت بالحجاز، وما عندنا قوت ليلة وما بتنا جياعا قط».

عنيت بهذه المقدمة عن الإمام الشافعي لأن كل زملائه ومريديه والذين رووا عنه هم في الحقيقة من الذين كانوا يكثرّون من زيارة السيدة نفيسة رضي الله عنها ويلتمسون منها البركة، وحين اتجه الإمام إلى مصر أشد يقول :

لقد أصبحت نفسى تتوق إلى مصر ومن دونها قطع المهامه والقفر
 ووالله ما أدري إلى الفوز والغنى أساق إليها أم أساق إلى قبري
 وكان رحمه الله موفور العلم غزير المادة، وكانت حافظته القوية
 خزانة لشتى المعارف التي كانت سائدة في عصره إلى زلاقة في
 اللسان وعذوبة في البيان وقوة في المنطق والبرهان، وكان يلذ له أن
 يناظر العلماء لثقتة في نفسه وإيقانه بالغلبة والنصر ولعلمه أن
 المناظرات محك العلم ومختبر الصحيح والسقيم به.

ووفد الإمام إلى مصر وتم التعارف بينه وبين السيدة نفيسة
 رضي الله عنها، وتوثقت بينهما الصلات، وقد ربط بينهما نزوع إلى
 خدمة العقيدة الإسلامية وحرص على رفع منارها كل بطريقته
 وأسلوبه، وإنه لهدف مشترك لمثله تتقارب القلوب الصافية وتتلاقى
 الجهود المتفرقة المخلصة، وكانت دار السيدة كريمة الدارين بمثابة
 الجزيرة المطمئنة القائمة وسط بحر صاحب متلاطم الأمواج.

وقد اعتاد أن يزورها وهو في طريقه إلى حلقات درسه في
 مسجد الفسطاط وفي طريق عودته إلى داره، وفي غير ذلك من
 الأوقات، وكان يصلّي بها التراويح في مسجدتها في شهر رمضان

الكريم، وكان من عادته إذا ذهب لزيارتها صحبه بعض أصحابه، ومع جلال قدر الإمام الشافعي وعلو درجته، فإنه كان إذا ذهب إليها سأها الدعاء ملتتمسا بركاتها، وقد سمع عليها حديث جدها المصطفى عليه السلام وإذا أصابه مرض جعله يتخلف عن زيارتها أرسل إليها رسولا من تلاميذه كالربيع الجيزي أو غيره فيقرئها سلامه ويقول لها: «إن ابن عمك الشافعي مريض ويسألك الدعاء» فترفع بطرفها إلى السماء وتدعو له فلا يرجع رسوله إلا وقد عوفى الإمام من مرضه وأبل من شكاته، ولما مرض مرضه الذي مات فيه أرسل لها على جاري عادته يلتمس منها الدعاء فقالت للقاصد متعه الله بالنظر إلى وجهه الكريم، وسأله الإمام الشافعي ماذا قالت له السيدة نفيسة رضي الله عنها؟ فقال له ما قالت فعلم أنه ميت، وأوصى أن تصلى عليه، فلما توفى سنة أربع ومائتين مروا به على بيتها فصلت عليه مأمومة، وكان الذي صلى بها إماماً أبو يعقوب البويطي أحد أصحابه رضي الله عنه، وكان مرور جنازة الإمام الشافعي على بيتها بأمر السرى أمير مصر لأنها سألته في ذلك إنفاذاً لوصية الإمام الشافعي رضي الله عنه لأنها لم تتمكن من الخروج إلى جنازته لضعفها من كثرة العبادة وقد قال بعض الصالحين ممن حضر جنازة الشافعي رضي الله عنه «سمعت بعد انقضاء الصلاتين أن الله تعالى غفر لكل من صلى على الشافعي بالشافعي، وغفر للشافعي بصلاة السيدة نفيسة عليه رضي الله تعالى عنها».

وجاء ذكر الشافعي بعد وفاته في مجلس فقالت السيدة نفيسة تمتدحه وتترحم عليه : « رحم الله الشافعي فقد كان رجلا يحسن الوضوء »، وقالت عنه أيضا : « كان الإمام الشافعي صبورا بكل ما في الصبر من معنى يتلقى الشدائد بقلب ثابت، ويسعى هادئا ليزيل ما ألم به معتمدا على الله حق الاعتماد ومتوكلا عليه حق التوكل، شاكرا ما ابتلاه ضارعا أن يكشف عنه الضر مستبشرا بأجر من عند الله بقدر ما يتحمل من آلام، ويظل هكذا دون أدنى ضجر أو ملل حتى يزيل الله ما نزل به وحينئذ يصلى لله شاكرا فهو عند الابتلاء كان شكورا وعند دفع الضر كان من الشاكرين ».

علماء حول كريمة الدارين :

وكان يزورها ويسأل دعاءها وحديثها وقراءتها ويلتمس بركتها الإمام عثمان بن سعيد المصري، وكذلك الشيخ أبو الفيض ثوبان ابن إبراهيم ذو النون المصري وهو من كبار الصوفية. ومن كلامه : « إياك أن تكون للمعرفة مدعياً أو بالزهد محترفاً، أو بالعبادة متملقاً، وفر من كل شيء إلى ربك ».

وكان يقول للعلماء : « أدركنا الناس وأحدهم كلما ازداد علما ازداد في الدنيا زهدا وبغضا. وأنتم اليوم كلما ازداد أحدكم علما ازداد في الدنيا حبا وطلبا ومزاحمة، وأدركناهم وهم ينفقون الأموال في تحصيل العلم وأنتم اليوم تنفقون العلم في تحصيل المال ».

وكان يقول: «كل مدعٍ محبوب بدعواه، عن شهود الحق لأن الحق شاهد لأهل الحق بأن الله تعالى هو الحق، وقوله الحق، ومن كان الحق تعالى شاهداً له لا يحتاج مدعياً فالدعوى علامة على الحجاب عن الحق والسلام».

وكان يقول: «لكل شيء علامة وعلامة طرد العارف عن حضرة الله تعالى انقطاعه عن ذكر الله عز وجل».

وقال رضى الله عنه: «إذا تكامل حزن المحزون لم تجد له دمعة لأن القلب إذا رق سلا وإذا جمد وغلظ سخا».

وكان يقول: «من لم يفتش عن الرغيفين من الخلال لا يفلح في طريق الله عز وجل».

ويقول: «قد غلب على العباد والنسك والقراء في هذا الزمن التهاون بالذنوب حتى غرقوا في شهوة بطونهم وفروجهم وحجبوا عن شهود عيوبهم فهلكوا وهم لا يشعرون، أقبلوا على أكل الحرام وتركوا طلب الخلال، ورضوا من العمل بالعلم يستحى أحدهم أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم. هم عبيد الدنيا لا علماء الشريعة إذ لو علموا بالشريعة لمنعتهم من القبائح إن سألوا ألحوا وإن سئلوا شحوا لبسوا الثياب على قلوب الذناب، اتخذوا مساجد الله التي يذكر فيها اسمه لرفع أصواتهم باللغو والجدال، والقييل والقال، واتخذوا العلم شبكة يصطادون بها الدنيا فإياكم ومجالسهم».

وسئل رضى الله عنه عن الحديث: لم لا تشتغل به؟

فقال: «للحديث رجال وشغلى بنفسى استغرق وقتى والحديث من أركان الدين ولولا نقص دخل على أهل الحديث والفقهاء لكانوا أفضل الناس فى زمانهم ألا تراهم بذلوا علمهم لأهل الدنيا يستجلبون به دنياهم، فحججهم واستكبروا عليهم وافتتنوا بالدنيا لما رأوا من حرص أهل العلم والمتفقين عليها فخانوا الله ورسوله وصار إثم كل من تبعهم فى عنقهم، جعلوا العلم فخا للدنيا وسلاحا يكسيونها به بعد أن كان سراجا للدين يستضاء به».

وقد استمر ذو النون يزورها فى حياتها ويزور قبرها بعد وفاتها إلى أن توفى سنة ٢٤٥.

وكذلك كان الفقيه الإمام عبد الله بن عبد الحكم من جلة أصحاب مالك وقد أفضت إليه رياسة المالكية بعد أشهب وقد بلغ هو وبنوه من الجاه والتقدم ما لم يبلغه أحد وكان صديقا للإمام الشافعى كما سبق أن بينا، وروى كثيرا عن الإمام الشافعى وكتب كتبه بنفسه وله مؤلفات عدة.

وكان لا ينقطع عن زيارة كريمة الدارين فى حياتها ولا عن زيارة قبرها بعد وفاتها، وقد سمع عليها الحديث واستفاد كثيرا من آثارها وأخبارها.

وعمن زارها في حياتها وعرف حق زيارة قبرها بعد موتها أبو سعيد سحنون بن سعيد الفقيه المالكي واسمه عبد السلام وغلب عليه سحنون باسم طائر حديد النظر لحدّته في المسائل.

وأصله من حمص ورحل إلى مصر فسمع فيها من ابن القاسم وابن وهب وأشهب وغيرهم، وقد رحل كثيرا وهو صاحب المدونة، مفتى القيروان وقاضيه وأول من أظهر علم المدينة بالمغرب وقد اجتمعت فيه خصال قلما اجتمعت في غيره من فقه بارع وورع صادق وصرامة في الحق وزهد في الدنيا وخشونة في اللبس والمطعم وسماحة في العطاء، وكان لا يقبل من أحد شيئا سلطانا أم غيره ولا يهاب سلطانا في حق يقوله، سليم الصدر للمؤمنين، شديد على أهل البدع. انتشرت أمانته وأجمع أهل عصره على تقدمه وفضله وكان مع هذا رقيق القلب غزير الدمعة ظاهر الخشوع متواضعا قليل التصنع كريم الخلق حسن الأدب فكان سراج القيروان، وكان كلامه لله وصمته لله، إذا أعجبه الكلام صمت وإذا أعجبه الصمت تكلم وقد راوده الأمير أبو العباس أحمد بن الأغلب حولا كاملا على أن يوليه القضاء فأبى عليه فعزم عليه بالآيمان التي لا يخرج منها، فلما رأى ذلك سحنون اشترط على الأمير شروطا كثيرة فأعطاه كل ما سأل وأطلق يده في كل ما دعاه إليه حتى قال له إنى أبدأ بأهل بيتك وقرابتك وأعاونك فإن فيكم ظلمات للناس منذ زمان طويل، فقال له الأمير نعم لا تبدئى إلا بهم، وأجر الحق على مفرق رأسى

فتولى القضاء بهذه الشروط في رمضان سنة أربع وثلاثين وقام قاضيا ستة أعوام لم يأخذ على قضاائه شيئا.

ويوم أن قبل القضاء دخل على ابنته خديجة وكانت من الخيرات فقال لها: اليوم ذبح أبوك بغير سكين.

والربيع بن سليمان المرادى الفقيه المصرى، من الذين انتفعوا بحديث كريمة الدارين، وهو من أصحاب الإمام الشافعى وراويته كتبه وكان إماماً ثقة صاحب حلقة بمصر.

وقد قال فيه الإمام الشافعى: ما فى القوم أنفع لى منه ولقد وددت أنى حسوته العلم.

وقال عنه أيضا: (الربيع راويتى) وهو أول من أملى الحديث فى جامع ابن طولون فى مدينة القطائع التى أنشأها أحمد بن طولون.

والربيع الجيزى، صاحب الإمام الشافعى من زائريها والموالين لزيارة ضريحها بعد وفاتها، وكان رجلا صالحا كثير الحديث مأمونا ثقة.

وقال أبو عمر الكندى فى الموالى: كان فقيها دينيا.

وأبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزنى، من العلماء الذين داوموا على زيارتها فى حياتها ملتصبا دعواتها وبعد مماتها مستنزلاً بركاتها، وكان فقيها عالما راجح المعرفة جليل القدر فى النظر عارفا بوجوه الكلام والجدل وحسن البيان مقدما فى مذهب الشافعى وقوله

وحفظه واتقانه. وله كتب كثيرة في مذهب إمامه انتشرت في أقطار الأرض شرقا وغربا، وكان تقيا ورعا صبوراً وكان مجاب الدعوة، وقال الإمام الشافعي عنه: (المزن ناصر مذهبي).

وحرمله بن يحيى التجيبي، وسكنى أبا حفص، ويقال: إن الإمام الشافعي نزل عنده، هو أيضا من زائريها في حياتها وزائري مقامها بعد موتها، وكان جليلا نبيل القدر.

وقد روى عن الشافعي من الكتب ما لم يروه الربيع منها كتاب الشروط وكتاب السنن وغيرهما، وكان إماماً حافظاً للحديث والفقه.

وكذلك ممن أوفى لها في حياتها وبعد موتها طالباً دعواتها وراجياً بركاتنا أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي، وكان كبير السن جليل القدر استخلفه الشافعي في حلقتة وكان يقول: «ليس أحد أحق بمجلسي من أبي يعقوب»، وليس أحد من أصحابي أعلم منه.

وكان عالماً فقيها لطيفاً في أسبابه يدني الغرباء ويقربهم إذا قدموا للطلب ويعرفهم فضل الشافعي وفضل كتبه حتى كثرت الطالبون لمذهبه وكتبه وكان ابن أبي الليث الحنفي قاضي مصر يحسده ويعاديه فأخرجه في وقت المحنة في القرآن فيمن أخرج من أهل مصر إلى بغداد، لم يخرج من أصحاب الشافعي غيره، فحمل إلى بغداد مع جماعة آخرين من العلماء فأركبوه على بغلة مغلولاً مسلسللاً في أربعين رطلاً من حديد، ويريدون بذلك منه القول بخلق القرآن

فأبى فحبسوه في السجن ببغداد على تلك الحالة.

وكان في كل جمعة يمشي إذا سمع النداء إلى باب السجن فيقول له السجنان: إلى أين؟ فيقول له: إني أجيء داعي الله، فيقول السجنان: ارجع رحمك الله، فيقول: إني أجيء دعوتك رب فتعوق، ومازال هذا شأنه إلى أن توفي في رجب في يوم الجمعة قبل الصلاة سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

وأبو موسى بن عبد الأعلى الصدفي الذي قال فيه الإمام الشافعي: (ما رأيت بمصر أعقل من يونس) ممن زاروا كريمة الدارين وداوم على زيارتها بعد وفاتها.

وكان جليلا ونبيلا من أهل الفقه والقرآن والحديث، أدرك سفيان بن عيينة وكتب عنه وكان إماماً في القراءات، قال أبو عمر الكندي: كان فقيراً شديد التقشف مقبولاً عند القضاء.

وقال يحيى بن حسان: «يونسكم هذا من أركان الإسلام» وكان ورعاً صالحاً عابداً كبير الشأن.

ولم تكن السيدة نفيسة قد التقت بالإمام أحمد بن حنبل، ولو أنها سمعت عنه، عالماً جليلاً، انفرد بمذهب خاص له في الفقه الإسلامي. كذلك الإمام أحمد لم يكن قد رأى كريمة الدارين من قبل، ولو أنه لا شك قد سمع بصلاحها، ولم بمظاهرتقواها، ولكن حدث أن بشر بن الحارث، وكان من كبار الخاصة الذين

يترددون على دار السيدة كريمة الدارين، ويعقدون معها فيها مجالس علم، انقطع عن زيارتها، فلما سألت عنه، وعلمت بمرضه، ذهبت تَعُودُه في داره، وهناك وجدت الإمام أحمد بن حنبل، فسأل الإمام أحمد صاحب الدار عمن تكون هذه السيدة، فلما عرف أنها هي السيدة نفيسة أحسن تَحِيَّتِها، وطلب من بشر أن يسألها لهما صالح الدعوات، وهذا الطلب يدل على علمه بمقامها الروحي العظيم، وبدعائها المستجاب، وما كان للسيدة الكريمة أن تَحْيِبَ رجاءهما وهي التي ما اعتادت أن تَحْيِبَ لأحد عن عامة قاصديها رجاء بل استجابت لهما ودعت قائلة: «اللهم إن بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل يستجيران بك من النار فأجرهما يا أرحم الراحمين».

وأى دعاء أفضل من هذا؟ إن النجاة من النار هي الأمنية الأولى لكل مسلم، وهي مفتاح باب الجنة، وبعد أن دعت لهما دعاءها هذا طلبت إليهما أن يدعوا لها فوافقا، وتقول في ذلك السيدة نفيسة رضى الله عنها: «لقد نعمت بمعرفة الأخ في الله الإمام أحمد بن حنبل حينما كان عند صديقه بشر بن الحارث وهو على جانب عظيم من العلم والمعرفة وعلو القدر عند الله، وقد استجبت لطلبهما، ودعوت لهما، كما طلبت إليهما أن يدعوا لي، فكان ذلك، والله خير مجيب».

هؤلاء هم العلماء ورجال الدين الذين زاروا السيدة الطاهرة

كريمة الدارين في حياتها، أما من زار المقام النفيسى بعد وفاتها من الأئمة والأعلام والأولياء الكرام فكثير ما هم، وما يزال المقام النفيسى مقاما لإجابة الدعوات، واستنزال الرحمات على أننى شخصيا أحب الصلاة في هذا المسجد الطاهر، وهذه البقعة المباركة وأنا أدخل المسجد موقناً أن الله سبحانه وتعالى العلى القدير سيجيب دعائى، لأن هذا المقام الطاهر ليأذبه من البأساء والضراء، وزيارته مظهر من مظاهر المودة لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾ فمن كانوا يرعون حق زيارتها بعد وفاتها ويستمرون على زيارة قبرها: أبو على الروزبارى، محمد بن أحمد بن القاسم البغدادى، الزاهد نزيل مصر وشيخها، صعب الجنيد، وجماعة من العلماء والصوفية، وأبو بكر أحمد بن نصر الرقاق، وبنان الجمال بن محمد بن حمدان أبو الحسن الزاهد (نزيل مصر وشيخها، كان ذا منزلة عظيمة في النفوس، وكانوا يضربون بعبادته المثل)، ويكار بن قتيبة الثقفى.

والإمام الطحاوى أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدى الطحاوى الحنفى وهو العلامة الحافظ انتهت إليه رياسة أصحاب أب حنيفة بمصر، وكان أولاً شافعياً فقرأ على خاله المزنى فقال: والله لا جاء منك شيء، فغضب من ذلك، وأخذ عن أب جعفر ابن أب عمران، فلما صنف مختصره، قال: رحم الله أب إبراهيم

لو كان حيا لكفر عن يمينه، وقد ناب في القضاء عن أبي عبيد الله محمد بن عبده، وله مؤلفات عدة.

وأبو بكر محمد بن أحمد بن جعفر الكنانى المصرى المشهور بابن الحداد وكان إماماً مدققاً فى العلوم، وكان كثير العبادة، يصوم يوماً ويفطر يوماً، ويحتم فى كل يوم وليلة جميع القرآن، ويحتم فى يوم الجمعة فى الجامع قبل الصلاة ختمة أخرى فى ركعتين وقد أخذ الفقه عن جماعة منهم المنصور التميمى، ومحمد بن حرب.

وهمة بن محمد بن العباس أبو القاسم الكنانى المصرى، وكان صالحاً ديناً، بصيراً بالحديث وعلله مقدماً فيه، ولم يكن فى المصرين فى زمانه أحفظ منه، وعبد المنعم بن عبد الله بن غلبون بن المبارك أبو الطيب الحلبي نزيل مصر، أستاذ ماهر كبير كامل ثقة خير صالح دين، ولد بجلب فى رجب سنة تسع وثلاثمائة، وانتقل إلى مصر فسكنها وألف كتابه: «الارشاد فى السمع» روى القراءة عرضاً وسماعاً عن إبراهيم بن عبد الرازق والحسين بن خالويه وغيرهما، وعرض عليه ابنه وكثير من علماء القراءات، وكان حافظاً للقراءة، ضابطاً ذا عفاف ونسك وفضل وحسن تصنيف ووجد بخطه على بعض مؤلفاته:

صنفت ذا العلم أبغى الفوز مجتهدا لكى أكون مع الأبرار والسعدا
فى جنة فى جوار الله خالقنا فى ظل عيش مقيم دائم أبدا

وعبد الغنى بن سعيد الأزدي، المصرى السمرقندى، وكان ثقةً صاحب سنة حافظاً علامة، وكان الدارقطنى يفخم أمره ويرفع قدره، رشح جماعة من مصر يودعون الدارقطنى ويكون لفراقه فقال: «أبكون وعندكم عبد الغنى وفيه الخلف»، وقد انتفع به خلق كثير.

ومحمد بن على بن أحمد الإمام أبو بكر الإدفوى المصرى وكان متمكناً من اللغة العربية بصيراً بالمعانى، كما برع في علوم القرآن وكان سيد أهل عصره بمصر، وله كتاب التفسير في مائة وعشرين مجلداً سماه الاستفتاء في علوم القرآن، وقد ألفه في اثنتى عشرة سنة.

والخوفى أبو الحسن على بن إبراهيم بن سعيد صاحب إعراب القرآن في عشرة مجلدات، كان إماماً في العربية والنحو والأدب، وله تصانيف كثيرة، والقضاعى القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة المصرى، الفقيه الشافعى قاضى الديار المصرية، وله مؤلفات عدة.

والجبال الحافظ الإمام المتفنن محدث مصر أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد بن عبد الله النعمانى، ونصر بن عبد العزيز أبو الحسن الفارسمى الشيرازى وهو شيخ محقق إمام مسند ثقة عدل، له كتاب الجامع في القراءات العشر، ويحيى بن على أبو الحسن المصرى

ويعرف بابن الخشاب، وأحمد بن عبد الله بن أحمد بن هشام أبو العباس اللخمي القاسمي، وغير هؤلاء كثير، وقد ذكر منهم ممن زاروها في حياتها، وبعد وفاتها، جمهرة من الصالحين والعلماء، وإلى اليوم يوالى زيارة مقامها الكثير من العلماء والعباد الصالحين ممن لا يحصيهم إلا الله تعالى.

واقعة أحمد بن طولون:

ذكر القرمانى في تاريخه وصاحب الغرر وصاحب المستطرف: أنه لما ظلم أحمد بن طولون استغاث الناس من ظلمه وتوجهوا إلى السيدة نفيسة يشكونه إليها فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا: في غد، فكتبت رقعة ووقفت في طريقه، وقالت: (يا أحمد يا بن طولون) فلما رآها عرفها فنزل عن فرسه وأخذ منها الرقعة وقرأها فإذا فيها: «ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، وخولتم ففسقتم ورددت إليكم الأرزاق فقطعتم، هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة لاسيما من قلوب أوجعتموها، وأكباد جوعتموها، وأجساد عريتموها فبحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، اعملوا ما شئتم فإننا صابرون، وجوروا فإننا بالله مستجيرون، واطلموا فإننا إلى الله متظلّمون، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب يتقلبون» قال: فعدل لوقته.

وهذه الواقعة مردود عليها:

أولاً: أن ظهور الدولة الطولونية التي أولها أحمد بن طولون كان في سنة أربع وخمسين ومائتين كما في تاريخ الإسحاق، وسنة خمسين ومائتين على ما في تاريخ القرمان، ووفاة السيدة نفيسة كانت في رمضان سنة ثمان ومائتين باتفاق، ويعلم ذلك بمراجعة كتب التواريخ.

ثانياً: أن السيدة نفيسة رضى الله عنها كريمة الدارين سيدة طاهرة نقية بحيث لا يتوهم غيبى غافل فضلاً عن فطن عاقل أنها تذهب إلى أحمد بن طولون، وتقف بالطريق تنتظره ليمر بها^(١). ولكن يمكن أن تغير الأسماء والظروف.. ونردها إلى شكوى بعض الناس من حاكم في عهد السيدة نفيسة.. فاستدعته إلى دارها، وأوضحت له طريق الحق والعدل، فعاد إلى السير في الخط المحمدى، وذلك نظراً إلى أن مجلس السيدة نفيسة كان يفد عليه العلماء وراغبو العلم، ولا بد أيضاً أن تشور قضايا الحياة في المجلس النفسى، ولا بد أن يكون لها دور في عمل كل ما هو خير، ومحاولة تغيير كل ما هو غير صالح^(٢).

ويوافقنى الأخ محمد شاهين حمزة على أن هناك اختلافاً كبيراً في

(١) هذه القصة نشرت في بعض الكتب، كما نشرت في مجلة العروى في العدد ٩٠

(١١ عرم سنة ١٣٨٦).

(٢) نفيسة العلم والمعرفة (للأستاذ صلاح عزام).

إيراد هذه القصة، كما يذكر أن ابن طولون كان يعبد الله حق عبادته حين يكون منفردا، ولكن كانت تأخذه العزة بالإثم حين يباشر سلطاته في أمور الناس حتى ضجت الرعية مما وقع عليها من ظلم، وتلقاء تعبده وجدّه بحق أشفق عليه من مغبة معاملته للناس فأرشد وحيا وهو في حلم كاليقظة إلى أن يعدل، وذكر بما ورد عن ذلك في القرآن الكريم والحديث الشريف فأصاح إلى ما أرشد إليه وأطاع، وحكم بالعدل بعد ذلك، ثم أغرق في عبادة الله حتى لقي ربه وهو من المقبولين.

كريمة الدارين تحفر قبرها في دارها:

استقرت السيدة نفيسة رضي الله عنها في الدار التي وهبها لها أمير مصر «السرى بن الحكم» في خلافة المأمون العباسي. وانتقلت إليها سنة إحدى ومائتين في ولايته الثانية، وقد سارع إلى أخذ البيعة بعد المأمون لولّى عهده على بن موسى بن جعفر بن عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه، وقد سماه المأمون بالرضا، وقد مات السرى بالفسطاط.

ويقول العلامة الأجهوري رحمه الله :

إن السيدة نفيسة رضي الله عنها حفرت قبرها الشريف بيدها، أي أمرت بينائه حال صحتها لشدة شوقها للقاء خالقها وعدم رغبتها في الدنيا الفانية وزينتها وكانت عليها سحائب الغفران، تنزل فيه

للتعبد والتذكر بالدار الآخرة، وكانت تصلى فيه النوافل العديدة حتى قيل إنها قرأت فيه ستة آلاف ختمة ووهبت ثوابها لأموال المسلمين بخلاف ما كانت عليه من التعبادات.

قالت زينب بنت أخيها :

« تأملت عمتي في أول يوم من رجب، وكتبت إلى زوجها إسحاق المؤمن كتاباً، وكان غائباً بالمدينة، تطلب إليه فيه الحجى إليها وموافاتها لإحساسها بدنو أجلها وفراقها لذيها وإقبالها على آخرها، وما زالت متوعدة إلى أن كان أول جمعة من شهر رمضان فزاد عليها الألم وهي صائمة، فدخل عليها الأطباء، فأشاروا عليها بالإفطار لحفظ قوتها ولتغلب على مرضها وضعفها، فقالت :

« واعجباه، إن لي ثلاثين سنة وأنا أسأل الله عز وجل أن يتوفاني وأنا صائمة أفأفطر، معاذ الله تعالى ».

ثم أنشدت تقول :

واصرفوا عني طيبي	ودعوني وحيبي
زاد بي شوق إليه	وغرامى في لهيب
طاب هتكى في هواه	بين واش ورقيب
لا أبالي بفوات	حيث قد صار نصيبي
ليس من لام بعذل	عنه فيه بمصيب
جسدى راض بسقى	وجفونى بنحيسى

فانصرف الأطباء وهم معجبون بقوة يقينها وثبات دينها، وسألوها الدعاء، فقالت لهم خيرا ودعت لهم.

وقالت زينب :

« ثم إنها بقيت كذلك وقد أقرتها الداء إلى العشر الأواسط من شهر رمضان فاشتد بها المرض واحتضرت، فاستفتحت بقراءة سورة الأنعام، فلا زالت تقرأ إلى أن وصلت إلى قوله تعالى : ﴿ قل لله كتب على نفسه الرحمة ﴾ ففاضت روحها الكريمة. وقيل : إنها قرأت : ﴿ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾ فغشى عليها. »

قالت زينب :

« فضممتها إلى صدري، فإذا بها تشهد شهادة الحق، وقبضت، واختارها الله لجواره، ونقلها إلى دار كرامته، وكان ذلك في سنة ثمان ومائتين، وذلك بعد موت الإمام الشافعي بأربع سنين » رحمهم الله جميعا.

وما أحسن ما قال بعضهم في خروج روحها رضوان الله عليها :

روح دعاها بالوصال حبيبها فأتت إليه مطيعة وبجيبه
يا مدعى صدق المحبة هكذا صدق المحب إذا دعاه حبيب

وقد أوصت السيدة نفيسة رضى الله عنها أن لا يتولى أمرها غير بعلمها، وكان مسافراً، فلما ماتت قدم في ذلك اليوم وهياً لها زوجها تابوتا وقال: إني لا أدفنها إلا بالبقيع عند جدتها المصطفى صلى الله عليه وسلم، فتعلق به أهل مصر، وسألوه بالله عز وجل أن يدفنها عندهم، فأبى.

فاجتمعوا وذهبوا إلى عبد الله بن السرى، أمير مصر، وتوسلوا به إلى إسحاق بأن يدفنها عندهم، وأن يرجع عن عزمه، وخاصة أنها حفرت قبرها بيدها في دارها.

فسأله الأمير في ذلك، وقال له: «بالله لا نحرمنا من مشاهدة قبرها، فإننا كنا إذا نزل بنا أمر جئنا إليها في دارها في حياتها نسألها الدعاء، فما تنتهى من دعائها إلا وقد كشف الله عنا ما نزل بنا، فدعها لتكون في أرضنا، فإذا نزل بنا أمر جئنا إلى قبرها فسألنا الله تعالى عنده». فأصر على نقلها ولم يرض ما طلبه القوم وما عرضه الوالى.

فجمعوا له مالا جزيلا وسق بغيره الذى وفد عليه، وسألوه البقاء فأبى، فباتوا في ألم عظيم وهم مقيم، وقد تركوا المال عنده، فلما أصبحوا جاءوا إليه فوجدوا منه ما لم يروه من قبل، فإنه أجابهم عن طيب خاطر إلى دفنها عندهم، ورد عليهم ما لهم، فسألوه عن ذلك، فقال:

رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، وقال لى :
يا إسحاق، ردّ على الناس أموالهم وادفنها عندهم».

ففرح القوم وأخذوا يكبرون.

ولما توفيت اجتمع الناس من القرى والبلدان، وأوقدوا الشموع
تلك الليلة وسمع البكاء عليها من كل دار بمصر وعظم الأسف
والحزن عليها، وصلى عليها بمشهد حافل ودفنت بالمكان الذى
حفرته.

وكان يوم دفنها يوماً مشهوداً، ازدحم فيه الناس ازدحاماً شديداً
وأخذوا يزورون قبرها ويأتون إليه من بلاد متعددة يصلّون ويذكرون
ويدعون.

وقد كانت وفاة السيدة الصالحة كريمة الدارين فى عهد ولاية
عبد الله بن السرى بن الحكم الذى بايعه الجند فى يوم ٩ شعبان
سنة ستة ومائتين فى اليوم التالى لوفاة أخيه محمد بن السرى أمير
مصر.

وكان السرى وبنوه الأمراء يجلّون السيدة نفيسة رضى الله عنها
ويعظمونها فأمر عبد الله بأن يبنى لها مقام على قبرها إعلماً لعلو
شأنها وآية على رفعة قدرها وإظهاراً لجلالها، وكان بناء ذلك المقام
عقب وفاتها سنة ثمان ومائتين، وفى ولاية الحافظ لسدين الله أبى
الميمون عبد المجيد بن الأمير أبى القاسم محمد بن الخليفة المستنصر

بالله الذى ولى الخلافة سنة أربع وعشرين وخمسة مئة ومكث فى
خلافته إلى سنة أربع وأربعين وخمسة مئة وقد أمر ببناء قبة على قبرها
الشريف وبناء مدفن للفاطميين بجوارها من الجهة الغربية.

وقد أخذ الكثيرون فى بناء القبور لهم ولذويهم حول ضريح
السيدة نفيسة رضى الله عنها تبركا بجوارها.

وكان مكتوبا على باب المقام هذان البيتان وهما من قول الإمام
الشافعى، رضى الله عنه :

يا آل بيت رسول الله جبكو فرض من الله فى القرآن أنزله
يكفيكمو من عظيم القدر أنكمو من لم يصل عليكم لاصلاة له

عندما تزور المقام النفسى :

وجب على من يزور مقام كريمة الدارين السيدة نفيسة رضى الله
عنها أن يبدأ بصلاة ركعتين لله تعالى تحية لمسجدها، ثم يتجه إلى
ضريحها فى خشوع، قال أبو موسى : « دخلت إلى ضريحها فوضعت
يدى على الضريح، فسمعت قائلا يقول : أهكذا تدخل على بيت
أهل النبوة ».

ثم يقول الزائر عند دخوله من باب الضريح^(١) : « رحمة الله

(١) كان الصحابة رضى الله عنهم، إذا جاءوا قبر النبي صلى الله عليه وسلم سلموا عليه
واستقبلوا القبلة ودعوا الله بما شاءوا. وكذلك يفعل الذين أنار الله بصائرهم فى زيارة =

وبركاته عليكم أهل البيت، إنه حميد مجيد، اللهم إنك قد نديتني إلى أمر قد فهمته واعتقدته وجعلته أجراً لنبيك محمد صلى الله عليه وسلم. الذي هديتنا به إليك ودللتنا به عليك، فكان كما قلت: (وكان بالمؤمنين رحماً) حبياً إليه ما هديتنا عزيزاً عليه ما عنتنا؛ وتلك الفريضة التي سألتها له وهي المودة في القربى، اللهم إنى مؤديها مرید النفع بها في ديني ودنياي متوسل إليك بها يوم انقطاع الأسباب اللهم زدهم شرفاً وتعظيماً، وهب لنا بزيارتهم مغفرة وأجرًا عظيمًا.

السلام عليكم يا بنى المصطفى، يابنى فاطمة الزهراء، السلام عليك يا نفيسة العلم، يا كريمة الدارين وجنح الرحمة، السلام على آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمعين، اللهم صل على محمد وآل بيت محمد وعلى أصحاب محمد وعلى أزواج محمد وعلى ذرية محمد، وسلم تسليماً، اللهم بلغني ما أملت وما رجوت وأعد

= الأولياء، ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾.

ولذلك لا يجوز أن تتخذ جواز الوسيلة وحصول الشفاعة بالمبالغة في الطواف حول الأضرحة والتوسل بها إلى قضاء الحاجات بل تنجيه إلى القبلة وتدعو الله في هذا المكان الطاهر.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: أرئنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؟
فأترل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ

الداع إِذَا دَعَانِ﴾.

علّي وعلى المسلمين من بركاتهم ونفحاتهم يارب العالمين». وسلام على عباده الذين اصطفى، والحمد لله رب العالمين. وقال الموفق بن عثمان :

« كان بعض السلف يزور السيدة نفيسة، رضى الله عنها، فيقول عند ضريحها: السلام والتحية والإكرام والرضا من العليّ الأعلى على السيدة نفيسة، سلالة نبيّ الرحمة، وشفيح الأمة، من أبوها علم العترة وهو الإمام حيدرة، السلام عليك يا بنت الإمام الحسن المسموم، أخى الإمام الحسين المظلوم، السلام عليك يا بنت فاطمة الزهراء، وسلالة خديجة الكبرى، رضى الله عنك وعن أبيك وعمك وجدك، وحشرنا الله في زمرةهم أجمعين، اللهم بحق ما كان بينك وبين جدّها محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج اجعل لنا من أمرنا الذى نزل بنا باب انفراج واقض حوائجى، فإن كانوا جماعة، يقولون واقض حوائجنا فى الدنيا والآخرة بمحمد وآله وصحبه أجمعين.

وكان بعضهم يدعو بدعاء آخر فيقول : السلام والتحية والإكرام، على أهل بيت النبوة والرسالة الكرام، السلام والرحمة على نفيسة بنت الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن السبط بن عليّ وابن فاطمة الزهراء رضى الله عنهم.

أنت غياث لكل قوم في اليقظة والنوم، فلا يحرم فضلكم إلا
 محروم ولا يطرد عن بابكم إلا مطرود، ولا يواليكم إلا مؤمن تقي،
 ولا يعاديكم إلا منافق شقي، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله
 وأعطني خير مارجوت بهم وبلغني خير ما أملت فيهم، يا آل بيت
 المصطفى، إنما السرور والسلامة فيكم، جتكم قاصداً فبالله اقبلوني
 فقد حسبت عليكم، اللهم :

إني ألوذ بحب آل محمد أرجو لذلك رحمة الرحمن
 مني الدعاء بحبهم لك دائماً يا دائم المعروف والغفران
 وكان بعضهم يقف على ضريحها ويقول :

يا رب إني مؤمن بمحمد وآل بيت محمد وموالي
 فبحقهم كن لي شفيعاً منقذاً من فتنة الدنيا وشر مآلي
 وكان بعض السلف إذا دخل ضريحها قال :

« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم
 تطهيرا رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد، اللهم
 إني نازل إليك بأعتابهم متقرب بولائهم متذرع بالطاهرين من رجالهم
 والطاهرات من نسائهم، اللهم زدهم شرفاً وتعظيماً، وشرفهم شرفاً
 حادثاً وقديماً، وهب لنا من زيارتهم مغفرة وأجرًا عظيماً، السلام
 عليكم يا آل بيت المصطفى يا بني فاطمة الزهراء، يا بني علي المرتضى
 يا بني الحسن والحسين يا أهل النبي، أنتم القوم لا يحرم من خيركم

إلا محروم ولا يطرد من بابكم إلا مطرود ولا يواليكم إلا تقى ولا يعاديكم إلا قى.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وعلى أصحاب محمد، وعلى أزواج محمد وعلى ذرية محمد، اللهم أنلني مارجوت بهم، وبلغني ماأملت فيهم وأعد علي من بركات السعي إليهم، وهون علي موقفى بين يديك، بالوقوف بين أيديهم».

ثم يقرأ الفاتحة، ويدعو حاجته من أمر دنياه وأخراه.

وكان بعض السلف، يقف أمام قبرها في خشوع ويقول:

«السلام والتحية والإكرام على أهل بيت النبوة و الرسالة، السلام عليك يا بنت الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن السبط ابن الإمام علي رضي الله عنهم أجمعين، السلام عليك يا بنت فاطمة الزهراء وباسلالة خديجة الكبرى، أنتم يا أهل البيت غياث لكل قوم في اليقظة والنوم، فلا يحرم من فضلكم إلا محروم، ولا يطرد عن بابكم إلا مطرود، ولا يواليكم إلا مؤمن تقى ولا يعاديكم إلا منافق شق، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم اعطني خير مارجوت منهم وبلغني خير ماأملت فيهم واحفظني بذلك في ديني ودنياى وأخراى، إنك على كل شيء قدير...» ثم يقول:

يا بنى الزهراء والنور الذى ظن موسى انه نار قبس لا أوالى الدهر من عاداتكم إنهم آخر سطر فى عبس

يشير إلى قوله تعالى في آخر آى عيسى ﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾.

وقد قال بعض السلف الصالح من العارفين : من كان في شدة وكرب وأراد تفرجه عنه، فليتوجه لكرمة الدارين السيدة نفيسة رضى الله عنها، وليقل عند قبرها بعد قراءة الفاتحة مرة والإخلاص إحدى عشرة مرة وسبح كذلك، ثم يقول :

كم حاربتنى شدة بيجشها فضاقت صدرى من لقاها وانزعجت حتى إذا أيست من زوالها جاءتنى الألفاظ تسعى بالفرج ثمان عشرة مرة. فإن الله سبحانه وتعالى يفرج عنه كربيه ويقضى سؤاله.

قال المقرئى فى خطظه : وقبر السيدة نفيسة رضى الله عنها أحد المواضع المعروفة بإجابة الدعاء بمصر، وهى أربعة مواضع :

سجن نبي الله يوسف الصديق عليه السلام، ومسجد موسى صلوات الله عليه ومشهد السيدة نفيسة، رضى الله عنها، والمخدع الذى على يسار المصلى فى قبلة مسجد الأقدام بالقرافة.

ويقول السخاوى فى تحفته : « ولم يزل الصالحون والأئمة والفقهاء والقراء والمحدثون والعلماء يزورون مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ويدعون عنده، وهو مجرب بإجابة الدعاء ».

وقال بعض الصالحين : إن الله تعالى وكل بقبرها ملكا يقضى حاجات الناس، رضى الله عنها.

الشعراء وكريمة الدارين :

قال المرحوم الشيخ أحمد محمد الكنانى رحمه الله :

بهذى الرحاب رحاب الكرام	أخنت ركابي فحاشا أضام
وكيف وإن محسب ولى	بتلك المغاني هوى وغرام
فما القلب يصيبو إلى غيرها	ورؤية عيني سواها حرام
إذا زاد سقمى وعز الشفاء	فقرؤى منها يزيل السقام
وإن لم أمتع بها ناظرى	فأنى لعيني طيب المنام
كلفت صغيرا بتلك الربوع	وقلبي يحن لتلك الخيام
وليس عجيبا فإن بها	مقام نفيسة بنت الكرام
نفيسة ذات العلوم ومن	من الله فازت بأعلى مقام
كشمس النهار كراماتها	وكم من دليل على ذلك قيام
فكم من أخصى شقوة أمها	فعاد سعيدا ونال المرام
وكم من حزين أتاها فعا	ذ قرير العيون علاه ابتسام
كفى بابن إدريس لى شاهدا	على ما أقول وهذا إمام
أسيدتى إنسى واقف	ببابك أرجو وجودك عام
وليس من الجود أن أعود	بخفى حنين وأنتم كرام

وإن ذنوب عظام جسام
تجيب الضعيف إذا الدهر ضام
ومن جاء هذا الحمى لايضام
وغوث الخلائق يوم الزحام
أجل الصلاة وأزكى سلام

نعم إننى لم أكن صالحا
ولكن نزلت بساحة من
فأنت رجائى بعد الإله
وجدك طه شفيع العصاة
عليه من الله فى كل آن

وقال الشيخ أحمد الحامى - رحمه الله تعالى - فى مدحها وزيارتها :

فاقصد حمى بنت الكرام الطاهره
أسرارها بين الخلائق ظاهره
واذكر مصابك تلقها لك ناصره
ب مغيثة الملهوف شمس الدائره
جبرت بتيسير المعاش خاطره
فعلى الدوام لزازيرها حاضره
ما تشتهيبه ونادها يا طاهره
مستعظفا أهل القلوب العامره
أو أن يعود بصفقة هى خاسره
أبغى الندى من وكف كف عاطره
عبد ضعيف الحال يدى قاصره
مالى معين قط عيني ساهره
جاها سوى ذى المعجزات الظاهره

يا صالح إن رمت الحياة الفاخرة
ذات الكرامات المعظمة التى
وبها توسل واحتسى بجوارها
فهى المنجية الشباب من العذا
كم جاءها ذو فاقة يرجو الغنى
فاغتم وسل بمقامها تعط المنى
وادخل وطف واسع وسل بتأدب
إنى قصدتك مستغنيا لائذا
حاشا وكلا أن يضام نزيلكم
يا كعبة الأسرار جنتك لائذا
يا أم قاسم الغياث فى إننى
دنف ومسكين مهين عاثر
يا بنت طه أنقذى من لم يجد

المصطفى الهادي البشير محمد من يرتجى كل الأنام مآثره
 صلى عليه الله ما بدرُ زها والآل والصحب النجوم الزاهرة
 أو ما استغاث الحامى أحمد قائلا ياصلح إن رمت الحياة الفاخره

ويقول الأستاذ الفاضل أحمد فهمى عمداً :

قف لائذا بسليمة الزهراء بنت النبي كريمة الآباء
 ذات العلا والمكرمات نفيسة بنت الأمير وسيد الكرماء
 وكريمة الدارين سيدة الحمى غوث اللهيف وفرجة الغناء
 فاقصد حماها راجياً متوسلاً وارفع أكف ضراعة ودعاء
 فهناك مهبط رحمة وشفاعة وبه ينابيع من النعماء
 الفيض في جنباته ومقامها حرم من البأساء والضراء
 والتور يسطع في حفاق قبرها نور النبوة في سنى وسناء
 فالله ينفعنا بها ويجدها والله يكتبنا مع السعداء

وقال الإمام شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى، صاحب البردة
 والهمزية رضى الله عنه مادحاً السيدة نفيسة وآل البيت رضى الله
 عنهم :

جنابك منه تستفيد الفوائد وللناس بالإحسان منك عوائد
 فطوب لمن يسعى لمشهدك الذى تكاد إلى مغناه تسعى المشاهد
 إذا ما أتاه القاصدون تيسرت عليهم - وإن لم يسألوك - المقاصد

يرجى به فضلاً ومن هو ساجد
 به والعذارى حسرا والقواعد
 فرده فما دون ورك ذائسد
 فما عدت إلآ والمخلأ وارد
 وعسر لأقفال اليسار مقالد
 على كب الظمان والماء بارد
 سميت بك أعراق وطابت محاتد
 فضلك لم يجده في الناس جاحد
 فحيات عقد المجد منهم فرائد
 ففضلكما - لولا النبوة - واحد
 ولم ينقبض إلا بزهدك زاهد
 إلى ماجد من آل أحمد ماجد
 إلى الصبح سارأولى النجم صاعد
 إمام هدى يدعو إلى الله راشد
 فنه عليه للعيون شواهد
 عليه فطابت للرواء الموارد
 فليس له إلا على الفضل حاسد
 ربوع خلعت من أهلها ومعاهد
 أقر لها زيد وبكر وخالد
 لكل لسان فيهم أو حصائد

تحققت البشرى لمن هو راعم
 فعفرت الشبان والشيب أوجها
 هو المنهل العذب الكثير زحامه
 أتيت إليه والرجاء مخلأ
 فيالك من بأس بلغت به المنى
 ألد من الماء الزلال مواقعها
 سلية خير العالمين نفيسة
 إذا جحدت شمس النهار ضياءها
 بأبائك الأظهار زينت العلا
 ورثت صفات المصطفى وعلومه
 فل ينسط إلا بعلمك عالم
 معارف ما تفك تفضى بسرها
 يضى عيياه كأن سناءه
 إذا ما مضى منهم إمام هدى أقى
 تبلج من نور النبوة وجهه
 وفاضت بحار العلم من قطر سحبها
 رأى زينة الدنيا غرورا فعافها
 كأن المعالى الاهلات بغيره
 إذا ذكرت أعماله وعلومه
 فقل لبني الزهراء والقول قرية

يجادل عنكم حسبة ويجادل
 على أسها في الله تبنى القواعد
 وودّ لكم آل النبي لفساد
 ولاني فيدنو المطلب المتباعد
 وإن حروف النطق منها الزواد
 فلم أدر سادات هم أم أساود
 بكم وعلى الأشقى تعود المكاييد
 نفي زيفها سلما إليهم لناقد
 وما كان مولود ليأباه والد
 أفضت على جنبي منها المراقد
 أكابد منها في الدجى ما أكابد
 ولاقام في نصر القرابة قاعد
 له دهشة والشاكلات سوامد
 إذ الدم جار فيه والدمع جامد
 تهدم إيمان وتبنى مساجد
 بما عبدوا إلا ليهلك عابد
 وليس له فيما يريد معاند
 لكم دونهم لم يغمد السيف غامد
 فليس لهم خطب وإن جل جاهد
 تساوى الأذاني عندهم والأباعد

أحبكم قلبي فأصبح منطلق
 وهل حبكم للناس إلا عقيدة
 وإن اعتقاداً خالياً من محبة
 وإن لأرجو أن سيلحقني بكم
 فإن سراة القوم منهم عبيدهم
 فدتكم أناس نازعوكم سيادة
 أرادوا بكم كيذا فكادوا نفوسهم
 فإن حيزت الدنيا إليهم فإن من
 ولو أنكم أبناؤها ما ابتكرو
 إذا ماتذكرت القضايا التي جرت
 وجددت الذكرى على بلا سلا
 أفي مثل ذاك الخطب ماسل مغمد
 تعاطم رزه فالعيون شواخص
 وطفف يوم الطف كيل دمائكم
 فيا فتنة بعد النبي بها غدا
 وما فتنت بعد ابن عمران قومه
 كذاك أراد الله منكم ومنهمو
 ولولم يكن في ذاك محض سعادة
 وأنتم أناس أذهب الرجس عنهم
 إذا ما رضوا لله أو غضبوا له

على بهرمان الصدق منكم وخامد
 عليه كتاب الله بالمدح وافد
 مكارم أخلاق لكم ومحامد
 لردت علينا في العيوب القصائد
 بضائعها عند الأنعام كواسد
 على عمد لا يرجع القول عامد
 وقد صدّهم حرمانهم أن يساعدوا
 فلن يقدر الزند الذي هو صالد
 لها كرما مجد طريف وتالد
 إليها حلال هديها والقلائد
 هي الغاية القصوى لمن هو قاصد
 لما ضل من ذكر المكارم ناشد
 بما أنا من درّ المناقب ناخذ
 بما أنا من عادات فضلك عائد
 لمرعى الأمان من جنابك رائد
 ولا اهتر من أرض المكارم هامد
 لقيت وإن إن شكوت لحامد
 خطوبيا بها ضاقت على المراصد
 وما لهموم القلب عنى طارد
 على وشيطان من البؤس مارد

وسيان من جمر العدا متوقد
 وفدت عليكم بالمدح وكلكم
 وقد بينت لي هل أكرم أت بها
 فلولا تغاضيبكم لنا في مدحكم
 ولم أرتزق من غيركم بتجارة
 عمدت لقوم منهم فكأنني
 أطلب من قوم سواكم مساعدا
 ومن وجد الزند الذي هو ثاقب
 وحسي إذن مدح ابنة الحسن التي
 وإن لمهد من ثنائ قلائدا
 هي العروة الوثقى هي الرتب العلا
 كأن إذا أنشدت في الناس مدحها
 أسيدق إن رجوتك معلنا
 وأعين آمالي إليك نواظر
 وما أجذبت قوم أت من لدنهم
 ولولاندى كفيك ما اخضرّ يابس
 إلى الله أشكو ابنة الحسن الذي
 وما لي لا أشكو لآل محمد
 وما لصروف الدهر عنى صارف
 تسلط شيطان من النفس غالب

بها لشياطين الخطوب مقاعد
 إذا نزلت في العالمين الشدائد
 إليه قوى عقل ولا اشتد ساعد
 مواردنا من أن تنال المصائد
 وهن جوار بل وهن رواكد
 ومن هو للأرض البسيطة ماهد
 إلى رفده إن أمسك الفضل رافد
 ولاخير من تلك الخزائن نافد
 وكلُّ بما يلقيه للصبر فاقد
 وأنت على ما في الضائر شاهد
 فإنك لم تُخلف لديك المواعد
 نراجعه في كربنا ونعاود
 فما أحد عمّا تقدّر حائد
 لنارك - إلا إن عفوت - وقائد
 لنا صلة يارب منك وعائد
 إليه وذلت للمطى فدائد

فياويح قلب ما يزال سماؤه
 فياسمع الشكوى وياكاشف البلى
 وياهادى الطفل الرضيع ولم تثب
 ويامن سقى الوحش الظماء وقد حمت
 ويامن يزجى الفلك في البحر لطفه
 ويامن هو السبع الطوابق رافع
 ويامن تناديننا خزائن فضله
 فلاباب من تلك الخزائن مغلق
 دعوناك من فقر إليك وحاجة
 وأفضت بما فيها إليك ضمائرى
 دعوناك مضطربين يارب فاستجب
 فليس لنا غوث سواك وملجأ
 فقدّر لنا خير الذى أنت أهله
 وصفحاعن الذنب الذى هو سابق
 وصل جبلنا بالمصطفى إن جبله
 عليه صلاة الله ما محمد السرى

خاتمة

أختمت كتابي هذا راجياً من المولى العلى القدير أن يكون قد وفقني، وأن أكون عند حسن ظن القارئ الكريم، كما أسجد شكراً لله سبحانه وتعالى على توفيقى فى كتابته وفى إخراجہ بالصورة التى يراها القارئ بين يديه، وكم كنت أرجو أن أتوسع فى الكتابة عن السلالة الطاهرة بقية أهل البيت، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، خصوصاً العقيلة الطاهرة السيدة زينب بنت الإمام على رضى الله عنها، لأنها سليلة من سلالة النبوة، وفرع من شجرة الرسالة، وعضو من أعضاء الرسول، وجزء من أجزاء الوصى والبتول، فهى كريمة النبعين عريقة الطرفين، وقد أشرت فى عدة مناسبات إلى شجاعته النادرة وصبرها المنقطع النظير، ولكنى فضلت أن أترك هذا الموضوع إلى الصديق الكريم الأستاذ على شلى رئيس مجلس إدارة مسجد السيدة زينب رضى الله عنها.

أما الموضوع الأخير فى هذا الكتاب، وهو الفصل الخاص بكرامة الدارين السيدة نفيسة رضى الله عنها، فقد أبرزته كما وعدت فى المقدمة لأن من مريدى كريمة الدارين أتبارك بزيارة ضريحها الطاهر وأنفءال بالصلاة والدعاء فى مسجدہا المبارك الذى أتشرف برئاسة مجلس إدارته.

وأرجو من الله سبحانه وتعالى أن يوفقني في إخراج الجزء الثاني
في القريب العاجل إن شاء الله تعالى.

وأقدم جزيل شكرى إلى كل من تفضل فأمدن بالمراجع التى
رجعت إليها، وأخص بالذكر الأستاذ محيى صبرى أبو علم، فقد
أمدن بكثير من المراجع النادرة من خزانة كتبه، وشكراً جزيلاً لرائد
التجارين الدينى الأستاذ حسن الملطوى.

والله ولى التوفيق والحمد لله رب العالمين.

توفيق أبو علم